سارق الزكاة

طبع في مصر

سارق الزكاة

مجموعة قصصية

تأليف

علي عمر خالد

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع

2019

الطبعة الأولي – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

2019 – 1440

رقم الإيداع: 13125 / 2019

الترقيم الدولي: 3 – 339 – 838 – 977 – 978

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل أمام سور نادى الزمالك- الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل علي أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخري بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إهداء

إلى كل من ضاع حقه في هذه الحياة وجار عليه الأباطرة الطغاة لا تخافوا ولا تحزنوا فرغم صعوبات الحياة وقسوتها ، يظل الله وحده القادر على ثلج الصدور بالراحة والطمأنينة من أهوال الدنيا وعنائها ، وهو وحده الذي يحي ويميت وهو كل شيء قدير .

علي عمر خالد

تنويه

قد تكون بعض الأسماء الواردة تتشابه والواقع، إلا أنها من وحي خيال المؤلف ولا تمد للواقع بصلة.

علي عمر خالد

سارق الزكاة

دقت المزامير والطبول احتفاءً وإستقبالاً لموكب الجواد الكريم صاحب العطاءات المباركة التي يجود بها على الجميع فالكل منها نصيب الفقير وغير الفقير، جاء الجواد وهو يمتطي جواده فرحاً بإستقبال أهل قريته له.

القرية الكبيرة طوقها النخل من كل حدبٍ وصوبٍ فكان تجارةً رائجةً لرقاق الحال الذين ابتغوا الحلال مورداً ناءوا به عن الرزق الحرام خشية الواحد الديان.

اختلطت صيحات الرجال أثناء مروره بأصوات المزامير وانسجمت لتتغنى باسم ابن القرية البار الذي بنى مسجدها الفسيح وزين مدارسها باللوحات والمقاعد المريحة بِراً وإحساناً إلى أهلها الذين يأكلون الحرام غير مبالين بغضب الرحمن.

القرية الشهيرة بالأنطاع الرعاع الذين كانوا من قبل حفاة عراة يحبون المال حباً جماً فاتخذوه إلهً من دون الله، متفاخرين بأنسابهم المزيفة التي لا أصل لها ولا فصل في أي مخطوطة أو كتاب، ناهيك عن أموالهم التي جنوها من حل المال وحرامه، فأغلبهم وليس بعضهم

جمع المال الحرام من شهادة الزور والربى وأكل أموال الناس بالباطل إلا القليل منهم.

صاحب الأفاقين الضالين موكب البطل الهمام صاحب اليد البيضاء على الفقراء والبسطاء، فكان يمتطي فرسه المزين سراجه بالألوان الأحمر والأزرق تتقدمه المزامير ويتبعه من خلفه الكثير، كأنه قارون مختالاً فخوراً بماله وموكبه حتى وصل لمقر جمعية الإحسان التي جاء ليفتح أبوابها الموصدة معلناً عن بدأ المساعدات لأهل قريته.

نزل البطل عن جواده، فطوقه الحضور يعانقونه بالقبولات الحارة والأحضان، والبطل وصل لذروة نشوته وسعادته بما أنجز من أعمال تتقوى بها الأبدان التي نشأت بعضها وربت على النبت الحرام.

فتح البطل جمعيته بعد أن قص شريط الإفتتاح في حضور الجمع الكبير، فصفق الأفقين وتعالت الزغاريد التي ملأت المكان فزلزلت القلوب والأبدان حتى صاح أحدهم: يا آيها الناس، هل تنكرون جود هذا الرجل؟ كثير العطاء والهبات، أم نسيتم أنه أكثرنا ذبحاً للذبائح في الأعياد والمناسبات.

لم يمر على الجواد عام دون أن يقيم الاحتفالات التي يستمتع الحاضرون فيها بأجمل الأصوات من المشاهير بالقراءات لكتاب الله،

ولما لا يكون كبيرنا وقدوتنا، فهو الأوحد جزيل العطاء من غير مقابل، فهو خير من يمثلنا في البرلمان.

هنا هتف الأفاقين: إن جيت للحق هو أحق، إن جيت للحق هو أحق، فتحول المكان لساحة تأييد ومبايعة لرجل القرية الهمام كثير الإحسان، فهو أثرى رجل في هذه القرية الظالم أهلها.

ولا عجب في ذلك! فقد زاع سيطه حتى لامس القرى الدانية منهم والبعيدة عنهم، فأصبح في ليلة وضحاها من مشاهير المدينة الكبيرة، ولما لا؟! فهو من الأتقياء النبلاء.

الحاج رمضان الجواد رجل عصامي بنى نفسه بنفسه من قاع الأرض حتى جلس على القمة منفرداً وحيداً بلا منازع، فأعماله محت سيرة السابقين والمعاصرين، فسرق هيبة الكبار وقبضها بقبضته بإحكام، حتى صارت له المشورة والقيادة في قريتهِ التي تقدر المال فتقف له إجلالاً واحتراماً مهملةً الضعاف من الكرام الذين دُهيسوا بالأقدام ظلماً وتجاهلاً.

مرت الأيـام والرجل يـزداد نفوذه وعلاقاته بجميع الطبقات والعائلات فأصبح أول المدعوين في كل المناسبات جنباً إلى جنب في مجلس كبار العائلات.

الجميع علم بذكاء الرجل في تجارة العقارات التي تعدى عددها العشرات في المدن الكبيرة بعيداً عن القرية، فتجارة العقارات رائجة

رابحة، يجني أصحابها فيضاً كثيفاً من سحائب الأموال في معظم الأحيان دون مجهود طويل وفي وقت قصير.

دخل الرجل البرلمان بعد أن دك حصون منافسيه في عقر دارهم بأعماله الخيرة وأفعاله التي أغرقت الجميع، فحجبهم دونه بعد أن تربع على عرش المدينة منفرداً لا ينازعه أحد، إلا أن جلوسه لم يدم لي كثيراً بعد أن قادتني الصدفة وقذفتني الأقدار أن أجالس يوماً أحد الشيوخ الكبار أصحاب اللحى البيضاء والعمامة الحمراء.

كنت برفقة أحد أصدقائي موصولِ الصلة بهذا الرجل الوقور الشيخ عبد الغفور الذي استقبلنا في مجلسه، ورحنا نتبادلنا أطراف الحديث الذي بدأه الشيخ الجليل.

سألني الشيخ الوقور عن اسمي وعملي وموطني؟

جاوبته في أدب ووقار، أنا من قرية الأنطاع جنوب البلاد واسمي أحمد علي.

أهلا وسهلا بك يا أستاذ أحمد.

وبينما يرحب الشيخ بي قطع حديثه أحد فحاري القبور العاملين في مقبرة المدينة الكبيرة، وقد غطى وجهه ورأسه العرق والتراب الذي انتشر على ما يرتديه من ثياب، فقضى حاجته سريعاً وانصرف.

استكمل الشيخ حديثه، فقال لي: أنا أعرف هذه البلدة جيداً فزرتها منذ عام بعد إنقضاء شهر رمضان، فنزلت بها ضيفاً على أحد معاونينا هناك الحاج رمضان، أتعرفه؟!.

قلت: وهل من أحد في بلدتنا لا يعرف الحاج رمضان؟ فسيطه زائع منتشر في كل أرجاء المكان.

قاطعني الشيخ بقوله: إن هذا الرجل كان يعمل هنا حفاراً للقبور وكان رقيق الحال شديد البؤس، وكان يساعدنا في نقل أموال الذكاة من المحسنيين إلى المحتاجين الذين نفتش عنهم الأرض كالدود لنصلهم كما أمرنا الله بما تيسر لنا.

بعد عدة سنوات فتح الله على هذا الرجل من حيث لا يحتسب، بعد راجت تجارته في العقارات التي بدأها ببناء أولى أبراجه السكنية في المدينة الكبيرة، فهو رجلنا الذي نثق به ونعتمد عليه، وهو يدنا التي نمدها لمساعدة المحتاجين والفقراء في بلدكم.

لم أعي ما يقول الشيخ الوقور، ربما لهول المفاجأة التي زلزلت أركان جسدي وفؤادي، وربما ظناً مني أنه أختلط عليه الأمر، وحدثنا عن رجل أخر غير الذي أعرفه.

قلت له: أي أموال تتحدث عنها يا شيخنا؟!

قال: أمـوال زكاة المحسنيين التي نصرفها في بناء المساجد والجمعيات الخيرية، فتلك الأموال هي التي بنت وشيدة مسجد قريتكم الكبير وجمعية الإحسان، وهي التي تذبح الذبائح كل عام، وتساعد الفقراء والمحتاجين.

خيم الصمت على وجهي، ولم أفق من غيبوبة الصمت إلا بعد أن وخذني صديقي لنستأذن الشيخ في الرحيل، وأنا في غيبوبة المفاجأة التي حلت بي ووصلت للذي لم يخطر ببالي يوما أو يقع على مسامعي أن يكون هذا الرجل لصاً سارقاً لأموال الزكاة.

غلبني ظني أن ثمة لبث في الأمر، وأن ما قصده غير الذي أقصده فربما كان رجل أخر غير الذي أعرفه، أم أنه مجرد تشابه في الأسماء لكن الواقع اليقين راح يؤكد لي عكس ظنوني، فرحت أضرب كفاً على كف وأقول في نفسي: لا وألف لا، فهذا ضرب من المستحيل، فلقد وصف الشيخ الرجل بكامل هيئته، كما وسع في وصف بلدتنا وقريتنا.

هنا رحت أسأل نفسي: هل ما قصده هو الرجل الذي طاف اسمه كل الأماكن القاصية والدانية؟!.

هل الذي قصده هو الرجل الذي حفر اسمه في كل مكان تطأ فيه الأقدام داخل أرض المحروسة؟!.

هل الذي قصده رجل الأعمال الشهير صاحب اليد البيضاء الذي يذبح في العام رهط من العجول السمان لتوزيعها على الفقراء، لص؟!.

هل ما سمعته حقيقة؟!.

هل من بنى المسجد الكبير لص؟!

وإن كان لصا!، فكيف يؤم الناس عند كل صلاة؟!

وكيف خدع الجميع بتقواه المزيفة؟!.

بر الوالدين

لم أفق من غيبوبة الفكر التي طالما أستأثرت على عقلي وفكري فرحت أتبعها في صمت وأدب متذكراً أياماً الماضي البعيد الذي دارت عليه عجلة الزمن متحكماً في حركته وسرعته، فإن أردت السرعة أسرعت وإن أردت البطء أبطأت بهبة من الرحمن الرحيم التي منحها لبعض البشر، فكانت نعمة للبعض ونقمة للبعض.

أمسكت بحبل الزمن وعدت للوراء متذكراً تلك الليلة التي سقط فيها مطر الشتاء الغزير الذي حطم نافذة بيتنا الصغير، فقمت من نومي فزعاً، وأول ما رأته عيناي أمي التي غطت أخي الصغير بلحافة الذي سقط أرضاً لتقيه البرد القارص.

أغلقت عيناي وأطمأنيت ورحت أغوص في منامي، وما أن زقزقت العصافير بعد أن أشرقت الأرض بنور ربها حتى فقت من منامي، فرأيت أمي تجلس جلستها نائمة خلف النافذة المحطمة وقد وضعت قماشة بالية على النافذة.

قلت لها: لماذا هجرتي النوم يا أماه؟!.

قالت: كان البرد ليلة الأمس شديد، فخشيت أن يصيب أضلاعكم فجلست أنتظر رحيله، والحمد لله رحل، كما أن أخوك الصغير سيطرت على جسده النحيل السخونة، فجلست أطببه حتى راحت عنه وهجرته.

بينما هي تحدثنا جاء أبي يحمل الطعام، فطلب منها أن تعد لنا طعامنا لنسد جوعنا الذي طال، فأنصرفت أمي لتعد لنا ما تيسر وجلست مع أبي قائلاً له: منذ متى يا أبي وأنت تفارق النوم؟

قال أبي: أنا لم أذق طعم النوم، فكانت ليلة البارحة مخيفة، فخشيت أن يصبكم مكروه، فرحت أحمل بعض الأحطاب والأخشاب لأسد به نافذة البيت التي حطمها برد الشتاء حتى أصلحت ما أفسدته الرياح.

مرت سنوات العمر وتبدل حالنا من فقر مقفع إلى فسحة ويسر لكن سعادة الحياة لا تدوم، فمرضت أمي بمرض شديد هجرت على إثره النوم بعد أن إتخذت من مضجعها كهفاً ترقد فيه ولا تفارقه، وكان أبي يحمل لها الدواء كل يوم ويعطيها إياه بإنتظام.

ذات يوم جلست بجوارها أشد من أذرها وأناولها الدواء برفق وأحدثها في لين، وكانت أختي تعد لها الحساء الساخن من وقت لأخر بعد أن هجرت المسكينة الطعام الذي لم تذق طعمه منذ شهور بأمر الأطباء.

لم أنسى ما كان تفعله أمي من رعاية و اهتمام ونحن ضعاف صغار، وبينما نحن جالسون غاصت أمي في نوم عميق، فوخذتها في جنبها كي

تفيق وتأخذ الدواء، وإذ بها فارقت الحياة في صمت، فخيم الحزن بيتناً وأبى أن يفارقه لبضع سنين.

مرت الأيام وقد أصاب أبي المرض الشديد وهو في معيتي يعيش بين زوجتي وأولادي فلا عائل له إلا أنا بعد رحيل أمي وزواج أختي، فقد كنت بعد الله عز وجل من أجالسه، وأقص عليه القصص، واذكره بما كان يقوله لي في صغري.

كان أبي رحمه الله يضحك تارة، وتدمع عيناه تارة أخرى، لأن الدواء الذي كان يشربه شديد المرارة، فكنت أصبره بجلد الأنبياء وصبرهم على البلاء اتقاءً لوجه الله، فذكرته بنبي الله داوود عليه السلام الذي أصابه المرض عشر سنين، وهو يئن من ألم المرض والفقر، لكنه صبر حتى مَنَ الله عليه بالشفاء والقوة.

استجاب أبي لي واستكمل شرب دواؤه المرير، وبعد أن فرغ منه ناولته الحساء الحار، وكنت أطعمه بيدي برفق كما كنت أطعم أمي برفق، إلا أن الحساء لسع جوفه الرقيق، فأصاب فمه بالحرارة فصرخ، فرحت أنفخ فيه برفق كي أخفف عنه حرارته، وظللت على هذه الحالة حتى فرغ من شرب حسائه.

في إحدى الليالي كان أبي يتألم ويئن من المرض فكان صوته يزعج زوجتي في مضجعها حتى تعالت صيحات ألمه ذات يوم، ففزعت من

نومي وهجرت مضجعي وذهبت إليه، فوجته يمسك بجنبه ويصرخ، فحملته وذهبت به إلى إحدى المشافي القريبة من البيت.

قال لي أبي: هل تتذكر يا بُني عندما كنت أحملك صغيراً ونحن نتجول في مدينتنا عندما أصيبت قدمك بالتعب من أثر المشي.

قلت له: وكيف أنسى ما فعلت يا أبي؟ فحبك غمرني ورعايتك لي أسعدتني.

قال أبي: سبحان الله لقد مرت الأيام وأنت من تحملني، وأنا لا أقدر على المشي، فقد أرهق المرض ساقيي وأنا الآن عاجز عن المشي.

قلت له: لا تقلق يا أبي فأنا معك ولن أتركك.

قال يا بني: ما فعلته ذكرني بحال جدتك التي أُصابها المرض قبل رحيلها، فكنت أحملها أطوف بها البيت لأخفف عنها آلام مرضها، فلقد ذكرتني أيضاً بأول مرة غسلتها بالماء بعد أن عجزت عن تغسيل نفسها، وقد تصببت عرقاً خجلاً من كشف عورتها أمامي.

فأصابها الخجل ووضعت رأسها أرضا، فقلت لها: أرفعي رأسك يا أماه وأفتخري بأبنك ولا تخجلي، فأنا أبنك، وهل تخجل الأم من أبنها، حينها تبسمت وسكتت حتى جففتها من الماء وعطرت جسدها بالطيب، فغمرتها السعادة بعد أن نظفت جسدها وطيبته وهي لا تكف عن الدعاء لي بأن يرزقني الله بالذرية الصالحة.

استكمل أبي حديثه فقال لي: أعلم يا بني أن بر الوالدين سلف ودين، فإن أسأت لولديك أساء ولدك لك، فبشرتني أمي بك قبل أن تأتي لهذه الحياة، وأنا أحمد الله أني كنت باراً بوالدي، فرزقني الله بمن يبرني.

قلت له أتعلم يا أبتي: أن سعادتي في رضاك وحبك لي تملأ الدنيا بمن فيها، وما أردت من هذه الحياة إلا رضاك عني.

فقال لي: لا تقلق أيها الشقي، فأنا راضي عنك.

وصلنا للمشفى، فتفحصه الطبيب وأعطاني روشتة الدواء، وقال أجلبها من الصيدلية الدانية وأترك أباك في رعايتنا حتى تعود، فجلبت الدواء وقد وخذه الطبيب بأبرة مسكنة للآلم، فصرخ أبي وأنا أمسك به وأقول له: أمسك بذراعي يا أبي، وخفف عن آلمك، فأنا منك ولك، خف الآلم رويدا رويدا، وعدنا لبيتنا بعد ليلة طويلة في المشفى.

عندما عدت للبيت وجدت أطفالي الصغار ينتظروني وهم يضحكون عندما رأوني أحمل أبي، فقال أحدهم: أأنت صغير يا جدي ولا تستطيع المشي كي يحملك أبي، فصرخت فيه، وقلت له: إن جدك مريض يا سليط اللسان.

تبسم أبي وقال لطفلي الصغير: أنسيت أني كنت أحملك كثيرا وأنت صغير، فلما لا تحملني وتخفف عن أبيك.

قال الصغير: أنت بلغت من الكبر عتياً يا جدي وأنا صغير لا أستطيع حملك، فضحكنا جميعاً واستقر أبي في مضجعه، وقد أتخذت إحدى الأرك بجواره مضجعاً لي لأرعاه حتى يفيق مما ألم به.

ناولت أبي الدواء وغاب، فغبت معه أرافقه في غيبوته، ولم تمر إلا ساعات حتى آن أبي من التعب، فطلب مني أن أقرأ له بعض آيات الذكر الحكيم، ففعلت ما أمرني به، ثم طلب مني أن أجلب له قدحاً من الماء البارد، فأحضرت له ما طلب، فوضع يده فيه وأخذ يمسح على جبينه المتعرق، فمسكت بمنديله ورحت أجفف عنه عرقه، فقال يا بني: بدى لي أن الأجل قد حان، فلربما سكرات الموت قد حلت وحانت، فأدعوا لي بني بما تيسر لك.

قلت له: الموت علينا حق يا أبتاه، فقد أموت قبلك وتودعني قبل أن أودعك.

قال: اللهم لا ترني هذا اليوم، وجلسنا على حالنا لساعات حتى حل الليل، وهو يعرق وأنا أجفف له عرقه، وأبدل بالماء وأمسح له جبينه، فأمسك أبي بيدي وكأنه يودعني، وقال لي: لا تنساني يا بني من صالح الدعاء إذا فرغت من الصلاة.

قلت يا أبتاه: أعطاك الله العمر المديد حتى تزوج أحفادك، فتسعد بهم كما سعدت بنا، فتبسم أبي وسكت.

قال أبي: ذكرتني يا بني عندما رحل جدك، فكنت أفعل معه كما تفعل معي الآن، يا سبحان الله كله سلف ودين، فأمسكت بخيط حديثه لأصرفه عما هو فيه.

قلت له: هل كان جدي رجل طيب؟

ضحك أبي وقال: إذا ذكرت الطيبة ذُكر جدك، فلا أنسى أنه كان يحضر لنا الطعام ونحن جياع في ظلمات الليل في لحظات لم يشعر بنا أحد إلا الله.

ففي إحدى الأيام كان قد أصابنا الجوع الشديد، ونحن فقراء لا نجد قوت يومنا إلا بالكاد، فخرج أبي في ظلمات الليل وأحضر لنا الطعام، فسألته أمي: من أين لك بالمال.

قال لها: لقد رزقنا الله من حيث لا نحتسب، فأعدت أمي الطعام وأكلنا وحمدنا الله، وفي اليوم التالي راحت أمي تفتش عن ساعة أبي فلم تجدها، فقلبت البيت رأساً على عقب بعد أن طلبت منا أن نساعدها في البحث عن ساعة أبي المفقودة.

فاق أبي من نومه وقال لأمي: لا تتكبدي عناء البحث، فلن تجدي ما تبحثين عنه، فقد بعت ساعتي بالأمس، فلا حاجة لي بها.

باع أبي ساعته ليطعمنا، وبعد مرور سنوات العمر وقد أنعم الله عليَ بالرزق الوفير كنت أحضر له الطعام بكل أشكاله وألوانه وأجلس بين

يديه أطعمه بيدي كما تطعمني بيدك الان حتى فارق الحياة وكان راضي عني والحمد لله.

فقلت له: الأن أدركت يا أبي لماذا أجد السعادة في خدمتك؟ فقد كنت باراً بوالديك.

قال: الحمد لله، فلم أغفل عنهما يوماً.

استمر الحديث بيننا لساعات، حتى عاد أبي يئن ويتصبب عرقاً من شدة الآلم الذي آلم به، فعدت أفعل ما كنت أفعله، فطلب مني أنا أعاود قراءة القرآن لأنه يشعره بالمطأنينة.

قرأت له سورة يس ثم أتبعتها بما تيسر لي، وبينما أنا أقرأ، إذ به يرفع يده إلى السماء قائلا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، فسقطت يده على مضجعه، وقد غرغر فمه بالماء القليل، ثم مال رأسه على الوسادة.

أدركت حينها أن أجل الله أتى.

مات أبي ورحل عنا وقد أصاب قلبي الحزن والألم، لكنني لم أنقطع عن الدعاء له عقب كل صلاة، إلتزاماً بما أوصاني به قبل موته، وكنت أسأل الله العلي القدير أن يرحم أبي وأمي كما ربياني صغيراً برحمته التي وسعت كل شيء.

وقد هداني الله أن أبني له مسجداً يذكر فيه الله كصدقة جارية على روحه براً بما فعله لي في صغري وشبابي، فلن أنسى الفضل الذي أنا فيه ما كان يأتي لولا اجتهاد أبي وأمي اللذان تحملا الكثير من أجلنا، واستكمالاً لبرهم حفرت لأمي بئراً لسقي الماء في إحدى البلدان الفقيرة، طمعاً أن تنال من فضل حسناته.

فجأة استيقظت من غيبوبة فكري على بكاء طفلي الصغير عمر الذي لم يتجاوز عمره الثلاث سنوات وهو يمسك بجلبابي ويجذبه نحوي، فكان يبكي لأن دميته قد كسرت، فقد حرمه فقدانها اللهو واللعب، فاحتضنت صغيري وحملته إلى متجر الألعاب، وجلبت له دمية أخرى حتى سكت وعادت له بسمته ترتسم على وجهه الجميل، فسألت الله أن يكون باراً بي كما كنت باراً بوالدي.

عاد أبو يحيى

بينما أطالع التلفاز متابعاً نشرة الأخبار المسائية بإحدى القنوات الفضائية، واذ بهاتفي النقال يملىء المكان رقصاً وضجيجاً، فرحت اطالع من المتصل، واذ به رقمٌ غريب أجهله، لكني لم أهمله وسارعت بالرد عليه بعد تدقيق النظر فيه، بعد أن لاح في ذهني أن يكون المتصل له حاجة ملحة أو أمر هاماً.

- الووو، السلام عليكم.
- وعليكم السلام، إزيك يا حاج عمر، عامل ايه؟ وايه أخبارك؟
- الحمد لله بخير، مين معايا؟
- معاك طارق حسن صديقك القديم، أنت مش عارفني ولا ايه؟
- طروق حبيبي، عامل ايه يا غالي؟ وحشني والله.
- ربنا يكرمك، فيه واحد حبيبك عايز يكلمك.
- مين داه؟
- خذ الهاتف وأعرفه بنفسك.
- الووو، ازيك يا عمر، انتى عارف مين معاك؟

- لا والله، بس الصوت مش غريب عليا.
- أنا أبو يحي.
- أبو يحي مين؟! أبو يحي الله يرحمه مات من كام سنة في الحج.
- والله العظيم أنا أبو يحي ولسه عايش وأهوه بكلمك.
- ازاي، ولاد عمنا في السعودية قالوا: إنك مت وادفنت هناك.
- أنا حي أرزق، أنا كنت فاقد الذاكرة، وقعدت سنتين مش فاكر حاجة، وأهوه صاحبك اسأله هو هيحكيلك على اللي حصل، المهم بلغهم في البلد ينتظروني، أنا جاي يوم الثلاثاء إن شاء الله.

اغلقت هاتفي وأنا لا أصدق ما حدث... أبو يحي حي، كيف؟! هل هذا حلم؟! أم أنه ضرب من ضروب الخيال، لقد سيطرت الدهشة والإشتغراب على فكري وعقلي.

بعدما تمالك نفسي من هول المفاجأة، اجريت اتصالاً أخر بصديقي طارق أسأله فأنا لا أصدق: يا طارق هل أبو يحي موجود عندك بالفعل؟

اجابني طارق: والله أبو يحي، وإنه بجانبي الآن.

قلت له صِفهُ لي.

قال: إنه رجل طويل أبيض ووجه مستدير وله قوام عريض والابتسامة لا تفارق وجهه قط وتبدو عليه علامات الطيبة بجانب

صوته الجهور، فهو رجل ألوف، وسيصل لكم الأسبوع القادم بشحمه ولحمه، فانتظروه في المطار الساعة 6 مساء يوم الثلاثاء القادم.

انهيت مكالمتي مع طارق وأنا في ذهول مما سمعت، ورغبت بنشر الفرحة بين أولاده بعد أن تنكر لهم الخلق جميعاً وجاروا عليهم وعاملوهم بقسوة وكأنهم لا يعرفونهم، فلقد تعرض أبناء هذا الرجل للظلم البين من القريب والبعيد حتى أن أزواج بناته طلقهن بعد أن افتقرن بعد وفاة أبيهن.

فأصبح أولاده مسرحية ساخرة للفرجة، فمن أراد أن يفرح بنفسه راح واستعرض عضلاته على هؤلاء المساكين لكي يجور عليهم، فلقد ارتفعت الحناجر وعلت الأصوات الغليظة عليهم بعد أن سبوهم وقذفوهم، هكذا كان حال المساكين بعد فراق أبيهم.

بلغت أولاده بهذا الخبر الجميل، إلا أنهم لم يصدقوا ما قصصت عليهم، فرحت أقسم لهم بأغلظ الأيمان أني قد حدثته وكررت على ما مسامعهم ما حدث مرات ومرات، وهم في ذهول مما سمعوا، إلا أنهم خروا على الأرض ساجدين من شدة البكاء بعدما صدقوا قولي.

أبانا حي، أبانا حي، مستحيل، هل سنرى أبانا مرة أخرى؟! هل ستعود الحياة جميلة كما كانت من قبل؟ هل سيلج الناس بيتنا بعد أن

هجروه؟ هل سنرى موائد الطعام عامرة بالناس كما كانت من قبل؟ هل سيكون الناس معنا رحماءاً لطفاءاً؟ هل سيعود الناس يحبوننا كما كانوا من قبل؟ هل سيقفون بجورانا بعدما هاجرونا؟ هل سيعودوا إلينا كما كانوا يفعلون؟ هل سيكفوا أيديهم وألسنتهم عنا؟ هل سنرى الكلاب تعوي في شوارعنا فرحا بما تأكله من عظام طعامنا؟

انتشر الخبر كالنار في الهشيم وبسرعة البرق وصل لكل من له صلة بهذا الرجل الكريم، فراحت السيارات والقطارات تحمل الرجال والنساء من أعماق قريته وفوداً وفودا حتى امتلأ البيت واكتظ بالضيوف، وراح ابناؤه البسطاء يطهون ما تيسر لهم من طعام بعد أن قدم الجيران آنيتهم الكبيرة لتسع طعام الضيوف.

طوى الفجر الساعات المتبقية على بذوغ شمس يوم الثلاثاء، وذهب الجمع إلى المطار مع أولاده في انتظار قدومه، نزلت أنا من محطة القطار رغبة مني في استقبال أبو يحي الذي لم أصدق بعد أنه عاد إلى الحياة.

فرأيت كلاباً هزيلةً لا صوت لها ولا نباح جالسةً عابثة الوجه لا تبدو عليها علامات الإرتياح، قد أمتدت جلستها من محطة القطار إلى بيت أبو يحي، فأستوقفت عجوزاً وسألته: يا عماه، ما هذا الكم الكبير من الكلاب الهزيلة؟

قال لي: إنها كلاب وفية، جلست هنا تنتظر أبو يحي الذي سخره الله ليطعمها ويسقيها، ورغم أن جلوسها قد طال، إلا أنها لم تفقد الأمل رغم مرور عام عليها وهي تهجر إلا القليل من الطعام الذي تيسر لها، إلا أن الأمل يحدوها في الخير الكثير من الزاد والزواد إذا أبو يحي إليها عاد.

انتهى الحديث بيني وبين العجوز وذهبت إلى المطار، فرأيت ما لا يصدق عقل، رأيت أبو يحي مرة أخرى، وأنا في ذهول مما رأيت، فرحت احتضنته بين ذراعيي وأتحسسه كي اتأكد من رؤيا عيناي له.

انطلقنا في مسيرات من المطار قاصدين بيته، وهناك اصطف الجمع كالبنيان المرصوص في مدخل حارته فرحين بما رأوا، فبعودة أبو يحي ستعود الخدمات والزيارات والاستقبالات، فمن لا يعرف طبيباً أرشده أبو يحي إلى الطبيب، ومن لا يعرف مسشفى أخذه أبو يحي إليها، ومن له مشكلة أو قضية قام أو أبو يحي بحلها، ومن أراد زيارة المقامات رافقهم أبو يحي إليها، ومن أراد قضاء حاجة نام وأكل وشرب في بيت أبو يحي دون أن يحمله الرجل جنيهاً واحداً.

سعد الجميع بعودة ابو يحي الرجل الكريم، رغبة في الظفر بخدماته وكرم ضيافته، وعاد أزواج بناته يمدحونهن أمام أبيهن، وقد اقسموا بالحفاظ عليهن وألا يسئن إليهن مرة أخرى.

سعد الجميع بعودة الرجل الكريم، وراح الناس يغدقون على بناته بالرفق واللين خشية أن يخسروا خدمات هذا الرجل الكريم، ظلت السعادة تملأ المكان حتى شعرت باحتياجي الشديد لقضاء حاجتي لأصابتني بمرض السكر اللعين، فصحيت من النوم ودخلت المرحاض وحمدت الله أنه ايقظني في الوقت المناسب قبل فوات الأوان.

اللص الثري

صدح المؤذن لصلاة الفجر معلناً عن ميلاد يوم جديد من أيام الله في إحدى القرى النائية في صعيد مصر، استيقظ عرفه من فراشه يلملم جلبابه الممزق، وقد سبقته زوجته النحيلة بثوبها الرقيق لحلب الجاموسة مصدر الرزق الوحيد لهذا البيت الرقيق الذي أكل عليه الدهر وشرب حتى تمزقت جدرانه كما تمزقت جلاليب أهله معبرةً عن بؤس حال ما فيه من فقر مفجع طأطأت له الرؤس ذلاً وانكساراً.

ما أن فرغ الرجل من قضاء حاجته حتى وجد كوب الشاي الساخن الممزوج بالحليب الطازج ينتظره برفقة زوجته النحيلة مع بعض قطع الكعك المجفف الذي أشتهر به أهل القرى.

شق الرجل ريقه بما قسمه الله له في بيته، وانطلق بصحبة حماره الهزيل ودلو الحليب الكبير قاصداً المدينة بعدد سكانها الكبير ليبيع ما رزق الله به من حليب على أهلها الأحسن حالاً من حاله، وهو معمم رأسه ومتمتماً فمه بشالٍ من الصوف الخشن وقد كفن نفسه ببنطال من الصوف وجلبابين إحدهما قصير والأخر طويل ليقي

نفسه من برودة الطقس وهو يشق الحقول الخضراء في طريقه الطويل إلى المدينة.

وصل عرفه المدينة وقد استقبلته زقزقة العصافير وصفير البلابل التي ملأت المكان، ثم نزل من حماره يطرق الأبواب الموصدة التي تنتظر الحليب الطازج، وما أن انتهي من بيع دلو الحليب. انطلق الرجل الفقير قاصداً إحدى المقاهي التي تتوسط المدينة عند ميدانها الشهير يطالع من غدى ومر وهو يشرب كوب الشاي مستمتعاً بحديث الصباح مع صالح عامل المقهى الذي صارت بينهما ألْفة بعد أن إعتاد رؤيته كل صباح.

مرت ساعات قضاها عرفه في المدينة عاد بعدها إلى بيته يريح حماره بالماء وبعض حشائش الأرض التي أقتلعها من الزروعات المنتشرة طوال طريق عودته من قريته إلى المدينة.

لم يترك الشيطان ذلك الضعيف رغم عدم إلتزامه بالطاعات والصلوات، فراح يلعب برأسه وهو يجول بها كيفما شاء مثيراً دافعه للثراء والتفكير فيما يغضب الله، فراح يحدث نفسه ويسألها: لماذا لا تتاجر بمال الربا؟، ولما لا!.

فمعظم أهل القرية يعملون بهذه التجارة الرابحة. فتجيبه نفسه الضعيفة: لكن أين لي بمال التجارة؟ وأنا لا أملك منه شيئاً، ذهبت

فكرة الشيطان أدراج الرياح ولكنها ما لبثت أن غدت وراحت أمام عقله الضعيف الذي لم يكف عن التفكير في الثراء لكن دون جدوى.

استمر الرجل في بيع الحليب والجلوس في المقهى الشهير يتابع المارة ويسترسل مع بعضهم متحدثاً عن سيرتهم بصحبة عامل المقهى صالح، وبينما يتبادل الأثنان الحديث مرت سيارة فارهة ألقى صاحبها السلام على الجالسين بالمقهى، فرد الجميع عليه السلام في هيبةٍ منه ووقار له، فأمسك عامل المقهى بسيرة الرجل وأخذ يتبادل الحديث معه حول هذا الرجل الثري.

أنت عارف مين داه؟

لا والله، مين داه؟

داه الواد حمامة الحرامي، شفت الزمن الجميل الواد حمامة كان فين وبقى فين وراكب ايه؟! شفت الحرام بيعمل ايه!.

داه الواد حمامة، داه شكله أتغير خالص، والله ما عرفته!.

ضحك صالح متعجباً وهو يضرب كفاً على كف، آه يا سيدي داه حمامة بيه.

مر الموقف على صالح كما مر غيره، إلا أن عرفه أمسك بمفتاح ثراءه، وأقسم ألا يتركه من يده حتى يصل لمبتغاه، إذاً فالسرقة هي مفتاح الثراء وهي الحل الوحيد للهروب من الفقر المفجع الذي أعيش فيه.

هجر عرفه فكرته القديمة وهي التجارة بالربا، وراح يفكر في مشروعه الجديد، والذي قد بدأه بالفعل دون أن يشعر، وكان أول ما بدأ به هو سرقة الحشائش من المزروعات المنتشرة على جانبي الطريق من القرية إلى المدينة.

إلا أن اللص الجديد الباحث عن الثراء كثف من نشاطه قبل أن يصل لمفتاح ثراءه، فلم يكتفي بطعام حماره وجاموسته، بل راح يسرق الخراف والماعز التي تُرعى في الحقول، وكان يبيع ما سرق في سوق القرى المجاورة حتى لا يشعر به أحد.

اتسعت سرقات اللص الجديد لتشمل الجاموس والأبقار، فجنى من سرقاته ما جنى، لكن طمع الثراء لم يثنيه عن تطوير سرقاته التي أتسعت شيئا فشيئاً حتى شملت متاع البيوت، فأنتفضت القرية على بكرة أبيها من زيوع السرقات وكثرتها، وراحو يبحثوا عن السارقين الذي كسروا أمن القرية وأمانها.

اجتمع رجال القرية ذات يوم في أحد دواووينها، وكان يجلس بينهما، فقص كل مجني عليه ما سُرِقَ منه من متاع وأنعام، ألف عرفه َ تمثيلية هزلية كان هو بطلها بعدما أجهش بكاءً وهو يحدث الرجال عن سرقة جاموسة بيته التي يطعم أهلها من حليبها.

أثار بفعلته شجن الجميع الذين نسو همومهم وانشغلوا بما أصابه، فتعاطفو معه وانصبو حوله يشدون من أذره، حتى قام أحدهم وتعهد أمامهم أن يعطيه بقرة يرتزق من حليبها، فكفكف عرفه دموعه وخرج مع الرجل وأخذ البقرة مسرورا فرحاً بنجاحه في اقناعهم بأنه أكثر الناس ظلماً، فظن الجميع أن مصدر الفرحة البقرة الجديدة التي حصل عليها عرفه، لكن فرحته التي كان يخفيها كانت قناعة أهل القرية بسرقة جاموسته، ودفع الشبهات والشك عنه.

أوقف عرفه نشاطه بعد أن شعر بدنو الخطر منه، ونقله إلى المدينة الواسعة، فزادات جلساته في المقهى الشهير يتتبع أخبار من وسع الله في رزقهم، وهو يرسم الخطط للإيقاع بهم، فراح يسرق كل من غفلت عنه العيون، لكن ما جناه من بيع ما سرق لم يحقق له مراده في الثراء.

ذات يوم وهو جالساً في المقهى حضر أحد الرجال يسأل صالح عن الحاج محمود التاجر الشهير، فأشار صالح إلى دكانه المجاور للمقهى، فسأله عرفه: هو الحاج محمود بيتاجر في إيه؟

داه تاجر مني فاتورة وتاجر فلوس كبير.

ضحك عرفه حتى ظهرت أحد أسنانه الفضية لامعةً في ضوء الشمس، وقال: هو فيه حد بيبيع فلوس يا حمار.

ايوه يا فالح، داه تاجر كبير بتاع عملات، بيشتري العملات الأجنبية من الجماعة بتوع الخارج وبيبدلها بفلوسنا، يبقى بيبيع فلوس ولا مش بيبيع.

كده فهمت.

أخيرا فهمت يبقى مين فينا الحمار يا عمي عرفه.

هز عرفه رأسه وقال: أنا الحمار.

مرت الأيام وأموال الحاج محمود تداعب شهوة عرفه الضعيفة نحو الثراء، فتحفذت لديه الفكرة وكبرت حتى قادته إلى النيل منه والسطو على أمواله، وبعد تفكير عميق أصبح مال الحاج محمود هدفه القادم، فجلس يتتبع خطوته ويدنو منه بحذر وهو يغدو ويروح أمامه في طريقه للمقهى المجاور له.

اتبع عرفه الحاج محمود يقتفي أثره، فعلم من المقربين أن الحاج محمود يسافر بنهاية كل أسبوع إلى العاصمة بكل ما يجمع من العملات ليسلمها إلى أحد التجار الكبار هناك، لينال ربحه من تجارته.

عرف اللص موعد سفر الحاج محمود وكان في قطار الساعة الرابعة صباحاً وقد قادته الصدفة إلى معرفة الموعد المحدد، بعد أن ترك عامل المحطة تذكرة السفر عند صالح في المقهى عندما وجد دكان الحاج محمود موصد.

بعدها عقد النية بعد وضع خطته التي بدأت بعد صلاة الفجر والناس نيام، فأتخذ أحد مقاعد محطة القطار مجلساً له. منتظراً الحاج محمود الذي حضر ماشياً على رصيف المحطة واضعاً أكواماً من الصوف على رأسه وجسده الذي أحاطه بعباءة ثقيلة من الصوف الخشن خشية أن يخترق البرد القارص جسده النحيل.

وأثناء ترجل الرجل في المشي ببطء من أثار البرد، وثب عليه عرفه كالأسد وخطف حقيبة المال من يده وفر بها هارباً، وقد فشل الحاج محمود في اللحاق به لثقل حركته المقيدة بالأصواف، وفر عرفه بخفته هارباً في الحقول المطوقة لمحطة القطار مختفياً تماماً عن الأنظار لبضع شهور.

أثارت حادثة السرقة الجميع، فراح رجال الشرطة ينبشون الأرض بحثاُ عن السارق الذي أدلى الحاج محمود ببعض أوصافه التي تطابقت مع أوصاف عرفه المختفي عن الأنظار، ولم تمر إلا شهور حتى أمسكوا به بعد أن ظهرت عليه أثار الثراء.

في البداية أنكر سرقته وعلل ثراءه بمكسب كبير حصده من السمسرة جراء وساطته بين البائعين والمشترين لبعض قطع الأراضي الكبيرة في محافظة الجيزة، ولكن بعد صعقه بالكهرباء والضرب المبرح بالكرباج أفصح عن فعلته وأعترف بسرقته للرجل.

احتجزته الشرطة في احدى السجون العتية لبضع سنين، وخرج من السجن بعد قضاء مدته مبتكراً طريقة جديدة للسرقة وهي البلطجة.

فمن أراد أن النيل من خصومه استعان بعرفه ليؤدبه بتهديده بالفتك به، فيستجيب الخصوم له بعد دفع مبلغ من المال، فكان يجني المال بطريقة يسيرة من الطرفين المتخاصمين حتى حقق الثراء الفاحش في فترة وجيزة وأصبح من ملاك العقارات والعمارت.

زاع سيط عرفه وانتشر وهو لا يكف عن الحيل التي جنى منها المال، ومنها أنه كان يقوم بإثارة المشاكل بين الناس، ثم ما يلبث أن يرتدي ثوب القديسين ويرفرف كحمامة السلام يصلح بين المتخاصمين نظير مبلغ من المال يحصل عليه من الطرفين.

دارت عجلة الزمن والأيام وتغير اسمه من عرفه بائع الحليب إلى الحاج عرفه أحد كبار القرية الذي يحتكم إليه الجميع ليفض ما دار بينهما من نزاع.

صباح حزين

ضجت الحارة الصغيرة التي تتشابك فيها البيوت الدانية من بعضها البعض في صباح يوم من أيام الله على صرخات االنساء ونحيب الرجال، فقفذت من مضجعتي أعتلى نافذتي المطلة على الحارة الضيقة.

فرأيت رجلاً ضخماً ملقى على الأرض يطوقه مجموعة من النساء والرجال يضربون جسده الضخم بعنف ببعض اللكمات في محاولة منهم لإيفاقته من غيبوبته التي طالت بعد أن ضربه الموت.

كان الرجل قد فارق الحياة وصعدت روحه لرب البريات، وظل جسده ساكناً دون حركة بعد أن فارقته الروح إلى عنان السماء.

لم تكف النساء عن الندب والصراخ والكل يقف مكتوف الأيدي أمام جثة الرجل الضخمة، فلم يقدر أحداً منهم على تحريكه من مكانه، فشغلوا أنفسهم بالندب عوضاً عن عجزهم عن نقله وحمله إلى بيته.

بينما هم على هذه الحالة جاء شاب يافع عتي أسود قوي البنيان وأمسك بخصر الميت الضخم ورفعة رفعة قوية على كتفه وجرى

به في عجالة إلى بيته، وهو يترجل يميناً ويساراً من ثقل جسد الرجل الميت، في حين أكتفى أهله بإتباعه دون تقديم يدي العون والمساعدة لهذا الشاب الذي ربما ندم على حمله وحيداً لضخامة جسد الميت.

اتبع الرجال النساء من أهله اللاتي ضربن على جيبوهن ووجوهن ورؤسهن بإيديهن معبرين عن حزنهن لفراقه.

ولم يمر من الوقت الكثير حتى اكتظت الحارة بالرجال والنساء الذين توافدوا على بيت الرجل الميت، وقد توسدوا الأرض خارجه لضيق بيته مشكلين صفين طويلين على جانبي الحارة متكئين على بيوتها البالية التي عبرت عن رق حال أهلها.

اخترق المغسل برفقة أحد الجيران الجمع من الناس بمعاناة شديدة حتى وصل لبيت الميت الذي طوقه الكثير من أهله رجالاً ونساءً مخترقين حرمة الميت الذي ستره الله، ومثلما عانى المُغسل في الدخول، عاني في تغسيله وتطهيره، وبعد وقت طويل أخذه في عمله غسله وكفنه، ثم فر هارباً فزعاً مما رأه وعاناه أثناء عمله.

ثم جاء بعض الرجال بالنعش من المسجد الملاصق للحارة لحمل الجثة إلى مثواها الأخير، إلا أن أهله رفضوا دخول النعش لحمله،

وأخذوا يضربونه ويركلونه بإيديهم وأرجلهم حتى كادوا يحطموه، وقد خالطت ضرباتهم صيحات النساء وبكاء بعض الرجال.

وأثناء عملية دخول النعش وخروج ودفعه وشده وجذبه شقت بعض النساء جيبوهن وأًصبحن أشبه بالعرايا في مشهد لم يبالي بهن أحد لكبر أعمارهن ووقاحة مظهرهن الذي لطخنه بالطين كالعجين فحولهن لأشباح سوداء وغرابيب سود تنوح بأصوات مزعجة ترهق الجالسين في وضح النهار.

بعد محاولات مستميته من الرجال الأشداء لإختراق البيت الذي تحصن بأهله مانعين دخول النعش، نجحوا أخيراً في دخول البيت، وخطف الجثة بعد أن وضعوها عنوةً فيه، وفروا به كاللصوص هاربين أمام أعين الناس.

رغم نجاحهم في الهروب بالنعش إلا أن النعش من عجلهم وسرعتهم انحرف وهم يركضون به هرباً، حتى كاد أن يسقط أرضاً من أثار الثقل والشد والجذب من الصارخين المطوقين للنعش.

ذهب الرجال بعد عناء إلى المسجد القريب يتبعهم القوم من الرجال والنساء والأطفال وهم يتساقطون على الأرض الواحد تلو الأخر في مشهد لم تألفه عيناي من قبل، بعد أن عاود أولاده القبض على النعش

أثناء السير حتى كادوا يسقطوه مرة أخرى رغبة منهم في بقاءه برفقتهم، وهذا ما أرق الحاملين للنعش أثناء سيرهم من البيت إلى المسجد وإن كانت المسافة ليست بالكبيرة.

صلى القليل من المتابعين صلاة الجنازة في المسجد، وبعد أن فرغوا من الصلاة توالى خروج الجميع حاملين النعش مرة أخرى قاصدين المقبرة.

انطلقوا به إلى مثواه الأخير، وبعد مسيرٍ طويل اخترق فيه النعش جنبات المدينة الكبيرة وصلوا إلى مقره الأخير، وكان في انتظاره عند المقبرة جمعٌ من النساء اللاتي أصطفين حول القبر يندبون ويصرخون دون خجل أو حياء.

مرددين بعض الأبيات الشهيرة التي يستخدمها العامة أثناء توديع موتاهم، فقادتهن إحداهن تنشد بعد أن اتبعها الباقيات يرددن ما تقول في صوت حزين ممزوج بالصراخ والعويل.

كدت أن أضحك مما سمعت، إلا أن المكان والزمان لم يسمح لي بذلك، ففضلت الإنصات على الضحك مستمعاً لهن بعد أن انصرفت عن مشهد الموت بتضليلهم لي بما أنشدنَ.

- قادت إحدهن الإنشاد تقول: أصملى عليك من تكة الدودة، وأنت يا غالي رجليك في القبر ممدودة، يا خراب بيتك، يا يُتم عيالك، يا شقي.

- قالوا شقية قلت من يومي، قسموا النوايب جاني الكبير كومي، يا فقري، يا شقي، يا صغير.

- حطوا الجلابية الخط جنب الخط، وأنتَ يا غالي رجليك في القبر تتحط، يا خراب بيتك، يا مراري، يا شقاوتي.

- عايزه تقومي وتنامي، وكيف يا شقية تروحي وتنامي، وراجلك مرمي في القبر قدامي، يا خرابي، يا مراري.

- مات اللي كان بريحته جميلة ومفحوحة، وأنتي من بعده يا فقرية عريانة ومفضوحة.

- شالك يا واد في الأخرة أهوه شالك، شيلت النيلة والحزن علشانك.

- ابكي عليه يا فقرية ونوحي، وخدي طربوشه وعلى بيت ابوكي روحي.

- الغسال قعد يغسله وراء اكتافي، حليت ضفايري وبللت بماء الغسل أنا راسي.

أثناء ترديد النسوة تم دفنه بمعاناة أخرى بعد أن تدافع بعض الرجال من أهله نحو القبر رغبةً في الدخول معه، وبعد أن فشلوا نتيجة الإرهاق الذي أصابهم ودفع الرجال الأشداء لهم بقوة خارج القبر، تساقطوا

واحداً تلو الأخر على الأرض، بعد اصابهتم بالإغماء من كثرة التعب جراء الصراخ والبكاء.

انتهى مشهد الدفن ولن تنتهي القصة التي أمتدت لأيام معدودات هجر فيها أهل الميت النظافة تماماً بعد أن توشحوا بالجلابيب السود رجالاً ونساءً حتى بدوا كغرابيب سود ملأت الحارة وكستها باللون الأسود، تعبيراً عن الحزن الذي أًصابهم نتيجة لفراقه.

اتبعت الجمع في طريق عودتي لبيتي الذي أغلق منافذه السرادق المقام على روح الميت، وقد جلست فيه طويلاً للشد من أذرهم، والتخفيف من آلام حزنهم دون أن أفلح أو أنجح فيما فشل فيه غيري.

في اليوم الأول وبعد وقت طويل ضاع في استقبال المعزيين الذين قدموا واجب العزاء، استدل ستار الليل وخيم على المكان، فهجر المعزيين السرادق رويدا رويدا، حتى تركوا أهله فراداً في مصيبتهم كي ينالوا قسطاً من الراحة بعد عناء يوم طويل مر عليهم.

عندما سيطر الليل على المكان خالط النساء الرجال في مجلس السرادق المقام، وراحوا يقسمون ما ترك بينهم من مالٍ متهمين زوجته بإخفاء الكثير منه.

وبعد مرور وقت قصير رحت أسرق فيه بعض لحظات الراحة والنوم بعد يوم طويل، فاجأتني النساء مرة أخرى بالصيحات والصراخ، فقفذت من مضجعي مرة أخرى أتابع ما حدث، وإذ بالنساء قسمن أنفسهن لفريقين يضربن بعضهن البعض باللكمات والكلمات البذيئة التي لا يعرف لها الأداب أو الأخلاق طريق.

تبين لي بعد أن أنفض الشجار العنيف الذي استغرق قرابة الساعتين أن المشاجرة كانت بين زوجة الميت وأولاده من جهة، وإخواته من جهة أخرى صراعاً على ما ترك من مالٍ وليس حزناً على من مات.

اغفلت عيناي ورحت أغوص في منامي تعباً مستنكراً ما رأيت وسمعت.

الخائنة المنكبرة

صدح المؤذن بأذان العصر معلناً عن موعد الصلاة فذهب بعض الناس لأداءها في المسجد الفسيح الملاصق لبيوتهم الذي بنوه بجهودهم الذاتية بعيداً عن خطط الحكومة التي لا تصل إليهم.

في هذا الوقت من كل يوم يستغرق سعد في نومه العميق بعد عناء يوم طويل قضاه في العمل الشاق المرهق، مستسلماً لنداء النوم ووسواس الشيطان تاركاً الصلاة لمن يؤدها.

تلك عادة صار عليها سعد وأمثاله منذ وقت طويل، وفي هذا الوقت تنظف صفاء البيت الكبير المكون من عدة طوابق إلى أن تنتهي بتنظيف الدرج الذي يستقبل الوالجين من مدخل البيت في صمت تام خيم على كل من فيه بعد سيطرة النوم العميق على أهله.

سعد وأسرته الصغيرة المكونة من أبناءه سعيد، ولبنى، ورقية عاشوا حياة هادئة كباقي الأسر المتوسطة الحال التي تقضي يومها في متابعة المسلسلات المتلفزة، فينصب معظم حديثهم حول أحداثها وتوقعات نهايتها.

الباب يطرق عدة طرقات بعد صلاة العصر بدقائق، فتسأل صفاء عن الطارق: من يطرق الباب قي هذا الوقت؟

يجبها الطارق: أنا عمر.

أهلا يا عمر أتفضل، صاحبك لسه نايم.

أنا جيت عشان أصحيه عشان معاد الدرس.

تأذن صفاء لعمر بالدخول، فيتخذ الدرج سبيلاً للصعود إلى أعلى البيت النائم أهله.

عمر هو الشاب الوسيم ذو الأخلاق الحميدة وصاحب الوجه الأبيض الذي يميل للأحمرار قليلاً، والجسم الممتليء قليلاً وبعض بُصيلات الشعر الخفيفة التي تغطي شاربه كأمثال أقرانه من هم في نفس عمر من دارسي الثانوية العامة.

عمر صديق سعيد ابن سعد يطرق باب صديقه أكثر من مرة في اليوم الواحد إما ليذاكر معه، وإما ليخرج معه أو ليتثامرا معاً هذا هو الروتين اليومي للحياة في هذا البيت.

لا يتواني عمر عن السؤال عن سعيد في هذا الوقت رغم علمه بأنه متعمق في النوم، فلعمر مطلق الحرية في الدخول والخروج من وإلى هذا البيت فهو صديق سعيد الصدوق.

تستمر وتيرة الحياة على هذا المنوال، عمر بدور يعتبر أن سعد ابوه وصفاء أمه والبنات اخوته فهو لا يتواني عن تلبية ما يطلب منه من تقديم أي خدمة أو قضاء مصلحة لأهل هذا البيت الذي أعتبره بيته، فيقوم عمر بمد يد العون للبنى ورقية في دروسهن وواجبهتن المدرسية.

هذا النابغة الصغير بارعاً في الشعر والأدب واللغة، فلديه ما لدى فطاحل الشعراء والأدباء من علم رغم صغر سنه، لكنه العلم الذي وهبه الله لعباده فييسره لمن شاء، فالعلم وحده لا تفلح معه طرق الرشوة أوالمحسوبية وليس له علاقة من قريب أو بعيد بالغنى والفقر.

تتكرر جلسات المذاكرة بين عمر ولبنى الشقيقة الصغيرة لسعد رفيق دربه، فلبنى متأخرة في دروسها وتحتاج لمجهود كبير كل عام كي تحقق النجاح في مراحلها الدراسية، وعمر أكثر من يجالس لبنى في هذا البيت مساعدة لها في تحصيل دروسها، فلم يبخل عنها الشاب العتي يوماً حتى وأن كان ذلك على حساب مذاكراته ودروسه.

مرت الأيام وتوثقت العلاقة أكثر وأكثر بين لبنى وعمر، وكلل الله مجهود الأبناء جميعاً بالنجاح، فسعد عمر وسعيد بهذا النجاح الذي ظفرا به، وتأهبا الإثنان للإقبال على مرحلة قادمة غاية في الخطورة وهي المرحلة الفاصلة التي تحقق فيها مكانة الفرد في المجتمع، فإما يكون ذو قيمة أو عديم القيمة.

كثيرا ما تبادلا الصديقان الحديث عن هذا المستقبل الغامض بالنسبة لهما، فيسأل عمر رفيق دربه: ماذا ستكتب في خانة الرغبات؟ وأي كلية تطمح لها؟

سعيد: كلية الشرطة طبعاً، كي أكون ذو سلطة وكلمة في هذا البلد، الذي لا يعير إهتمام إلا لأصحاب السلطة والنفوذ.

عمر: لكن كلية الشرطة تحتاج واسطة كبيرة.

سعيد: الواسطة موجودة، والفلوس موجودة وإن شاء الله داخل داخل بس ادعيلي، وأنت يا عمر ناوي على إيه؟

عمر: ما أنت عارف البير وغطاه يا صديقي، هي كلية التربية أو كلية الأداب عشان أحصلي وظيفة في التربية والتعليم داه كل اللي أقدر عليه، على الأقل أضمن وظيفة أكل منها عيش مع أن مفيش حاجة مضمونة في الزمن داه.

سعيد ضاحكاً: أيوه يا حقير، عشان تعرف قدر مستواك كويس قدام الباشا سعيد، وكل ما تشوف عمك تضربله تعظيم سلام، وتقوله يا باشا بالفم المليان، بس داه كويس ليك هيبقلك واسطة وظهر يا واد يا عمر تحتمي بيه في البلد.

عمر: يا عم بس أدخل الأول، وحتى لو عايز أمسكلك الشنطة وامشي وراك أنا معنديش مانع، المهم أنك تتقبل وتبطل تنطيط على

خلق الله، أحسن تترمي بره وأخرتها ترسه على معهد بمجموعك الزبالة داه.

سعيد: إن شاء الله أبويا هيظبطلي مع كذا واحد منهم النائب بتاع المركز.

عمر: اوعى ياد يكون نائب من اللي بيترشحوا ومبينجحوش زي حماد أبو الخطيب، ما هو كل دورة يترشح يسقط وبعدين يطلعوا ناسه ويهللوا النائب راح والنائب جاه، وهو عمره ما دخل مجلس الشعب ولا شافه.

سعبد: عيب يا واد، داه نائب بجد، أنت عارفه الحاج خالد أبوخالد نائب الدايرة.

أه عارفه.

هو داه الواسطة بتاعتي.

يبقى أن شاء الله داخل داخل، داه رجل ثقيل وليه وزنه في البلد.

تفرق الصديقان لأول مرة منذ زمن بعيد، عمر إلى مقر المحافظة لسحب أوراق التنسيق الجامعي لترتيب رغباته الجامعية، وسعيد إلى العاصمة لسحب أوراق الترشيح لكلية الشرطة بصحبة أبيه وبعض أقاربه القاطنيين في العاصمة.

بعد مرور شهر أنتظر الإثنان نتيجة تحديد المصير بفارق الصبر، تلك النتيجة التي ستحدد مستقبلهما المجهول.

فعمر يطمح أن يكون معلما للغة الأنجليزية التي عشقها ونبغ فيها ونهل من علومها، إلى أن برع في الكتابة والشعر ليحقق ما أمل به أن يعمل بالتدريس حتى يستر نفسه ويساعد أسرته رقيقة الحال.

بعد فترة قصيرة من الزمن لم تتجاوز الشهرين ظهرت نتيجة التنسيق وألتحق عمر بكلية الأداب قسم اللغة الأنجليزية ليستقبل الخبر بفرحة عارمة هو أسرته رقيقة الحال، فرحة عاشها معه صديقه سعيد الذي سارع بتقديم التهاني لرفيق دربه الذي حقق مبتغاه بعد عناء طويل من السهر والتعب.

بينما سعيد أنتظر نتيجته بفارغ الصبر، الصبر المغلف بالقلق والحيرة، فأسألة كثيرة تدور في ذهنه، ماذا سأفعل لو لم أقبل في كلية الشرطة؟ وماذا سيكون مصيري؟ فمجموعي قليل حتى كلية الحقوق لن تقبلني، فلم يكون أمامي وقتها إلا المعاهد،معهد معهد طول ما عندنا واسطة مفيش مشكلة أخرتها إيه وظيفة والسلام.

وفي ساعات الليل الأولى جلست الأسرة أمام التلفاز تشاهد مسلسل الساعة السادسة مساءً، والجميع غارق وسط أحداث المسلسل يتابعه بإهتمام، فلا صوت يعلو في هذا البيت على صوت الفنانيين والفننات.

بينما هم على هذه الحالة يصرخ هاتف البيت بالرنيين، ولا يود أحد منهم أن يهم للرد عليه كي لا تسقط منه بعض أحداث المسلسل الشيق، إلا أن ربت البيت قامت استجابة لرنيين الهاتف الذي لم يكف عن الضجيج.

آلوو آلووو مين معايا؟ ايوه موجود، أقله؟ أقلوله مين الحاج خالد أبو خالد، يا أهلا وسهلا، حاضر، حاضر، أهوه معاك.

سعد: أهلا يا سيادة النايب أزي معاليك، الحمد لله كلنا بخير، سعيد، ماله سعيد نجح، نجح يعني خلاص اتقبل وهيبقى ظابط، أكيد يا حاج خالد، والله أنا ما مصدق.

ترك سعد سماعة الهاتف وهتف يا بنت يا صفاء، زغرتي يا بنت سعيد اتقبل، سعيد اتقبل في كلية الشرطة.

يا نهار أبيض، يا صلاة النبي، يا فرحة يا ولاد.

ثم عاود سعد الحديث مع النائب بعد أن بشر زوجته بفرحة عمرهما

الله يبارك فيك يا سيادة النائب، أهوه كله بمجهودك وتعبك معانا، مع السلامة يا حاج خالد.

دبب الفرحة أرجاء البيت، وسعد الجميع بهذا النبأ السار الذي سيغير مسار الأسرة بأكملها، فسارع الجيران بتقديم التهاني والتبريكات لسعد وصفاء.

عجلة الأيام تمر والرفيقان - عمر وسعيد - لا يلتقيان، فعمر مهموم بدراسته الجامعية بين أهله ومحافظته، وسعيد في العاصمة منغمساً في تدريبات الشرطة الشاقة داخل المعسكرات الخاصة بأكاديمية الشرطة.

لم يتواني عمر ولو للحظة في تقديم العون لأسرة سعيد قدر ما أستطاع، فراح يقدم لهم ما ينبغي عليه أن يقدمه، فكل شيء ظل كما هو دون تغير، فعمر يغدو ويروح إلى جامعته كل يوم ليدون محاضراته ويعود إلى بلده.

ذات يوم وأثناء عودته من الجامعة وجد لبنى تقف في طريق عودته مع أحد الشباب (الفرافير) فهم عمر إليهما مقبلاً بدافع الغيرة على عرض صاحبه، فارتبكت لبنى وسيطر عليها الخوف، لكن سرعان ما تمالكت نفسها وسيطرت عليها.

عمر: السلام عليكم، ايه يا لبنى فيه حاجة؟ واقفة في نص الشارع ليه؟ ومين داه؟

لبنى بإرتباك شديد: داه داه أحمد زميلي.

عمر: أهلا وسهلاً يا سي أحمد.

لبنى: أحمد داه عمر صاحب أخويا سعيد.

أحمد: أهلا وسهلا يا أستاذ عمر.

عمر: أهلا وسهلا يا حبيبي.

ياله على البيت ولا أسيبك تكملي.

لا لا أنا ماشيه أهوه.

انتهى الموقف العابر، ومر مرور الكرام كموقف عفوي حدث بالصدفة لم يمعن فيه عمر التفكير كثيرا، فهو لم يبالي به مثلما بالت به لبنى، فاصحطبها حتى وصل بها إلى بيتها.

رغم مرور الموقف، إلا أنه تكرر مرة أخرى في مكان قريب من المدرسة، فللمرة الثانية وجد عمر لبنى تقف مع نفس الشاب فيما بعد أوقات المدرسة، وفي نفس المشهد الذي تكرر منذ أقل من أسبوع.

هنا أرتبكت لبنى أكثر وأكثر من ذي قبل، فماذا ستقول لعمر في هذه المرة؟ وبماذا ستبرر له وقفوها مع هذا الشاب؟ وما السبب الذي ستقوله لتبرر به وقوفها معه؟ كل هذا السيل من الأسئلة دار في فلك عقلها في ثواني معدودة، بعد أن بدت على وجه عمر علامات الغضب الذي بدى عليه غير ذي قبل.

عمر: انتوا واقفين هنا ليه؟

لبنى بإرتباك شديد: ابدا ابدا، داه أحمد كان بيقلي على حاجة في المدرسة.

اصطحب عمر لبنى بغضب دون أن يتفوه فمه ولو بكلمة، ولبنى تزادد خوفاً ورعباً كلما ذاد عمر في صمته، في مشهداً إذا رأيته فلن تراه إلا بين شرطي ولص، عندما يمسك الشرطي فيه باللص بثبات، بينما اللص يمتليء قلبه خوفاً ورعباً انتظاراً لما قد ينتظره من مصير لا يعلمه.

وأثناء الطريق من أمام المدرسة إلى بيت لبنى ساد الصمت بينهما وكأنهما شخصان مجهولان يسيران في طريق طويل لا ينتهي، وبعد هذا الصمت الرهيب والطريق الطويل يصل الأثنان إلى البيت.

هنا بدأت لبنى تتنفس الصعداء، ثم مسكت بيده، ويدها ترتعد وعيناها يكسوها الرجاء وقلة الحيلة، ثم قالت له: عمر، أبوس على ايدك اللي حصل داه ميوصلش لبابا أو لماما، عمر الله يخليك، أنا مش عايزه صورتي تبقى وحشة قدامهم، أنا كده هتذل طول عمري ومش هقدر أبص في وش حد فيهم، أنت عارف يا عمر لو سعيد عرف ممكن يخسرني العمر كله، وداه هيكون بسببك، فارحمني الله يخليك، وأنا مش هنسالك داه العمر كله.

يصمت عمر، ثم ما يلبث أن يوبخها ببعض الكلامات القاسية والتي أختلطت بعبارات العتاب الشديد جراء ما بدر منها في حق نفسها وفي حق أهلها.

شعرت لبنى بعده بإرتياح شديد رغم هذا الدش الساخن في درجات الحرارة الملتهبة، إلا أنه أخف وأرحم بكثير مما قد ينتظرها في حال سماع أبيها أو أمها لما حدث، وما قد تعانيه من قسوة في القول الذي يجلد النفس بسياط السخط والذل، وخاصة من الأم التي حملت وربت.

انتهى هذا المشهد بعد أن وجه عمر للبنى بعد النصائح التي تنم عن غيرته وخوفه عليها، وبهذه الكلمات التي أسداها لها، بدأ فصل جديد في العلاقة بين لبنى وعمر.

كل شيء يمر كما هو، إلا العلاقة بين عمر ولبنى زادت يوما بعد يوم، وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة في تلك المنطقة التي آلتفت فيه الأسرة حول التلفاز، ومن بينهما عمر يتابعون المسلسل اليومي، وأثناء الجلسة طلبت لبنى من عمر أن يساعدها في مذاكرتها ليسهل عليها بعض الدروس التي صعب عليها فهمها، فما كان من عمر إلا أن لبى طلبها دون تردد، بعد أن أمطرته لبنى بعبارات المدح والثناء، التي قابلها عمر بخجل وتواضع.

قالت لبنى: المشكلة يا عمر اني مش بفهم إلا منك، عليك طريقة شرح ممتازة وبتدخل في الدماغ على طول فبتوصل المعلومة زي البرق، غير المدرسين اللي بيشتغلوا رغي رغي ومش بفهم منهم حاجة، بالإضافة لأن أغلب المدرسين بطلوا يشرحوا أصلا.

تدخل لبنى غرفة الجلوس، ويتبعها عمر في حضور الجميع، فيبادر عمر بشرح فقرات الدرس ويفصلها تفصيلاً دقيقا، كما لو كان طبيبا ماهراً يحدد موضع الآلم ببراعة فيدويه بكل سهولة ويسر.

لكن لبنى لم تستجيب، لأنها غرقت في بحر السرحان هائمة في عمر وملامح وجهه الوسيم، فعمر لديه من الوسامة ما يكفي أن تقع أي فتاة في حبه وغرامه بالإضافة إلى أن مقاييس الجمال لديه تفوق جمال لبنى.

عمر: ايه فينك يا هانم سرحانه في ايه.

لبنى: أبدا أنا معاك أهوه.

عمر: مش باين خالص انك معايا.

لبنى: لا والله معاك ومركزة قوي قوي كمان.

لم يبالي عمر بسرحان لبنى وأكمل شرح الدرس وانصرف إلى بيته لكي ينام مبكرا ليستيقظ مبكرا، فالمسافة من بيته للجامعة تستغرق الكثير من الوقت، فساعة واحدة لا تكفي بالسيارة وساعتين على أقل القليل تكفي لو ركب القطار.

مرة عدة أيام عاودت فيه لبنى طلبها من عمر أن يشرح لها بعض الدروس التي فاتتها، وأثناء تلقي الدرس من عمر، استأذنت لبنى لتشرب شربة ماء تسد بها ظمأها، ثم عادت لترى عمر منهمك في القراءة وبينما هو على تلك الحالة تجلس لبنى على رجليه بدلا من أن تجلس على الكرسي.

أرتبك عمر وتظاهرت لبنى بالإرتباك أيضاً، معربةً عن أسفها عن هذا الخطأ الغير مقصود لكنه كان مقصوداً، بما لا يدعو مجالاً للشك.

لبنى تضحك لتبرر ما فعلت: ايه اللي انا عملته داه، بدل ما أقعد على الكرسي قعدت على رجلك، داه أنا رايحة فيها خالص، ثم واصلت الضحك، وبينما هي على حالتها تصبب عمر عرقاً، وكأن وجهه سماءً انهمر منها المطر.

في المقابل واصلت لبنى الضحك، ثم سكتت لبرهة، ثم عاودت الضحك مرة أخرى، فبادلها عمر الضحك بعد أن سيطر عليه الخجل حياءً مما حدث.

كانت تلك هي البداية في العلاقة الأثمة التي بدأت من تلك اللحظة الفارقة في حياة الأثنين كيف استمرت؟ وإلى أين ستنتهي؟

هذا ما سوف نعرفه تباعاً في هذه القصة الحقيقية والغير حقيقية، الحقيقية في أحداثها والغير حقيقية في أشخاصها، فبالتأكيد من يقرأها سيظن أنه عاصرها من قبل أن يعرف أحداثها، إلا أنها غير حقيقة لأن ما ورد فيها من أسماء وأحداث هي من وحي الخيال ليس إلا ولا تمد للواقع بصلة.

بدأت لبنى ترمي بشباكها نحو عمر، وعمر يقاوم ويقاوم كالصخرة الصلبلة ضد أمواج البحر الهائج، ولكن سرعان ما تحطمت صخرة التقوى بفعل الشيطان الذي لا يكف عن وسواسه، الذي كان أشبه بعوامل التعرية التي نحتت الصخر فأذابته، بعد أن تأكلت الصخرة شيئاً فشيئاً إلى أن هوت وتحطمت أمام الشهوات التي وضعها الله عز وجل في نفس كل إنسان فكان الزواج هو الرباط المقدس لإخراجها.

إلا أن الشيطان أراد أن يتحكم في البشر من خلال تلك الثغرات وهي الشهوات، فزين لهم ما حرم الله حتى يقعوا فيه غير مبالين بالقيم والمباديء والأخلاقيات التي وضعها الله مع فطرة الإنسان منذ ولادته.

استمر عمر على حال تردده على بيت صديقه يجلس ويلقي بدروسه على لبنى التي خلقت الأعذار للإنفراد به، معللةً ذلك بقلة استيعابها لدروسها، بعد أن زادت جرأة لبنى يوما بعد يوم.

بدأت لبنى خطواتها نحو المعصية في المرة الأولى بعد أن وضعت يدها في يديه، وعيونها في عيناه، وعمر لا يبالي ويصمد، إلا أن لبنى لم تسكت ولم تتراجع عما عزمت عليه بعد أن قررت أن تتخذه منفساً عن شهوتها.

في إحدى المرات التي كان يلقي فيها عمر بعلمه، وكان جميع من في البيت نيام، كتب عمر سؤالاً، طلب من لبنى الإجابة عليه.

قال عمر: ما أعراب كلمة يجتهد؟ هيا أكتبي الإجابة يا لبنى.

كتبت لبنى الإجابة الغير متوقعة: بحبك.

عمر بحسن نية: إيه يا لبنى اللي كتبتيه، دي كلمة بعيدة عن الدرس خالص، يخرب بيت سرحانك.

عاد عمر وقال: ركزي شوية وإن شاء الله حتجوبي صح، ياله مرة تانية، ما هي إعراب كلمة يجتهد؟

مسكت لبنى بالقلم وكتبت: بحبك بحبك بحبك يا عمر.

هنا تحطمت صخرة الدين بعد أن قاومها الحياء لسنوات، فهمت به وهمَ بها، لولا أن فكر بصديقه الذي فتح له بيته، فعاد إلى رشده سريعاً قاطعاً خطوات الشيطان التي دنت بينهما.

مسك عمر يدها قائلاً لها: لبنى أرحميني، أنا مش ممكن أخون صاحبي وأخويا.

إلا أن لبنى أمسكت بخطوات الشيطان قائلةً له: وهل في الحب خيانة، أنا بحبك وأنت بتحبني، ففض إليَ بحبك، لأمتعك بنفسي وجسدي الذي حرمته عليك الأيام سنوات طوال.

وقع عمر في الخطيئة للمرة الأولى بعد أن راح يقطع ما طالته يده وشفتاه بين حنين الحب وشهوة البشر.

انتهى اللقاء بما أغضب الله، وكسرت الخطيئة سيف الحياء الذي هجرهما إلى عنان السماء.

استمرت العلاقة الآثمة بينهما تحت ستر الرحمن، إلا أن لبنى لم تنسى كبريائها الذي دفعها أن تجعل خيوط لقائهما بيدها، فراحت تعطيه جسدها وتحرمه منه وفقاً لأهوائها.

تاه عمر في فلكها بعد أن سيطرت على فؤداه وعقله، فأصبح لها أثيراً لا يملك حول ولا قوة، مثله مثل العبد الذي لا يملك صك حريته، ولما لا؟! فقد جردته من العفة والدين والعقل الرشيد، فهجر بعد فعل

الحرام الصلاة والصيام، وأصبح كالكلب الضال الذي يلهث انتظاراً لقطعة لحم ترميها له وقتما شاءت.

تبدل حال عمر وظهرت علامات البؤس والضيق على وجهه وهو ينتظر لقائها الذي يتم تحت إمرتها، وبينما هو يفعل معها ما يفعله المراهقين، أظهرت ما كانت تخفيه من تعالى وكبرياء عندما أسقط ماءه خطاءً على جسدها العاري، فنهرته وعنفته بعد أن قضت حاجتها قائلةً له: أنت نسيت نفسك ولا ايه؟ كيف تلقي قذوراتك على جسد سيدتك.

ظن عمر في باديء الأمر أنها مزحة، لكنه أيقن أنها الحقيقة بعدما قامت من مقامها غير مبالية به.

ضاق صدر عمر فصفعها على وجهها صفعة عنيفة زلزل صداها أركان جسده، فأفاقته من غيبوبة الحرام الذي كان يعيش فيه، فهجرها بلا رجعة معلناً التوبة للواحد الديان.

المظلوم

لطم أحد الجبابرة خادمه على وجهه فخر أرضاً، ثم اتبعه بركلة في بطنه فهوى مسروعاً يفترش الأرض من شدة الآلم، وبعد أن أنتهى من لطمه وضربه خرج على قومه مزهواً بنفسه قائلا: هذا جزاء من تسول له نفسه أن يعصي لي أمراً، فأنا الملك وأنا الخالد وأنا الباقي على العرش بقاء الدهر.

طأطأ الجميع رؤسهم منكسرين خانعين لهذا الجبار ذلا وانكسارا، إلا واحدا منهم ظل مرفوع الهامة مفرود القامة نظر للظالم غاضبا وقال: إن دعاء المظلومين سيف تقطع به رقاب المتجبرين فيخسف بهم وبدارهم الأرض، فلا حياة خالدة ولا عروش دائمة فصدق ربي حين قال: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾.

ذادت كلمات الرجل المتجبر غضبا فقال له: أنت تقول أني عن عرشي راحل غير باقٍ.

قال: ربي يقول أن الملك بيده وحده، وأنه قادر أن ينزعه منك كما أتاك إياه، فلا تنسى أنك عبداً من عباد الله.

قال المتجبر الذي لم يرحل غضبه: وأنت من جاء يذكرنا بما نعلم.
قال الرجل: فذكر إن الذكرة تنفع المؤمنيين.

سكت الظالم بعدما أخرسته كلمات الرجل، إلا أنه لم ينسى له فعلته.

مرت الأيام سريعاً وجاء يوم الحساب، ذلك اليوم الذي ينال الأجير أجره جزاء ما عمل طوال العام في حقل الطاغية الكبير.

اصطف الجميع صفاً واحداً أمام الطاغية الذي اعتلى درج قصره وهو يتوسط الجميع أعلى الدرج، ثم نادى الطاغية على رجل باسمه ليصعد بعد درجات السلم ليأخذ ما قسمه الله له على يد هذا الظالم.

جاء دور خالد فضحك الظالم، ثم كشر عن وجهه وقال: خذ ما قسمته لك.

مد خالد يده وعد المال فوجده أقل القليل فقال: يبدو أن هناك خطأً يا باشا، فهذا المال أقل ما أحصل عليه كل عام.

قال المتجبر: هذا ما تستحق.

خالد: لكن يا باشا هذا أقل من اجرتي التي أتقاضاها.

المتجبر: هذا ما تستحق، وهذا ما رأيت.

خالد: لكن هذا ليس عدلاً يا باشا.

المتجبر: أنا الذي أرى وأعدل، فالمال مالي والرزق رزقي وأنا الرازق هنا أهب ما أشاء لمن أشاء، فخذ ما أنعمت به عليك، وقبل يدك بعد أن شملتك برحمتي وأعطتك المال، وأخرج من هنا مذموماً مدحورا، فأنا لا أطيق رؤيتك ولا سماع صوتك البغيض.

حرمه الظالم من نيل ما كان ينتظره طوال شهور مضت كان يعمل فيها بجد واجتهاد عند هذا الطاغية، فنال منه لقوله كلمة حق أمامه ذات يوم لم يغفرها له الباشا الذي تربص به حتى جاءت لحظة الإنتقام وهو غافل عن طاعة الرحمن.

جلس المسكين على سجادة الصلاة ساعات يشكو إلى ربه حتى بح صوته وجفت دموعه متضرعاً إليه بالدعاء كي يعصمه من بطش هذا الظالم الذي نال من قوت عياله وهو يئن كالأم الثكلى.

ومن شدة نحيبه ونجواه آنت الجدران وفاضت الأرض وأمطرت السماء تأثراً بحزنه الذي حرك الجماد بإذن من الجواد لكن شيئ لم يحدث لهذا الجبار رغم توسلاته لرب البلاد والعباد الذي أمهل الظالم ولم يهمله.

تأخرات قطرات الرحمة عنه، فأمطرت دموعه سيلاً عرم دمر فؤاده وزلزل أركانه جراء ما فعله الظالم به فلم يكافئه على أعماله معه طوال

عام بأكمله فجزاه جزاء سنمار، إلا أنه لم يتوقف عن مناجاة ربه ليلاً أو نهاراً قائلا له: ربي عجل بكل ظالم، ربي أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، أني أدعوك يا الله فاستجب لدعائي.

تقطعت أوصال المسكين، فراح يحدث نفسه ويناجيها ويسألها: لماذا لم يستجب ربي لشكواي؟ لماذا لم يهلك الله الظالمين؟ إلا أن نفسه آبت أن تجيبه، فراح يغوص في حزنه مستعيداً شريط الظلمات الذي مر عليه خلال سنوات عجاف عصف به، وهو لا يجنى جراء ما حصد إلا ظلماً وظلمات.

شكى لكل من حوله لكن لا أحد أهتم به، فقرر أن يذهب لهذا الظالم ليسأله عن ظلمه له، ولكن الظالم لم يهتم لما يقول بل راح يسوق الحجج الواهية ويتصيد الأخطاء، فأظهر ما كان يخفيه من حقد في قلبه.

أظهر الظالم نيته في أن يغرد وحيدا على عرش مملكته الواهية التي أحاطها بالآفاقين والمضللين الذين يسبحون بحمده ويثنون عليه، فاراد الظالم أن يكون المظلوم مثلهم آفاق رياق يصفق له ويحيطه بأخبار التابعين، لكن أخلاق المظلوم وقفت كالسد المنيع امام رغبات الظالم.

دار عجلة النقاش ببينهما لوقت طويل قارب الساعتين انتهى بإصرار الظالم على ظلمه وبطشه بالمظلوم، فلم تشفع له أعماله عنده، فما من شيئ أقترفه سوى إخلاصه وتفانيه في عمله دون أن

يجني ثمار ما عمل إلا الشوك الذي أصاب قلبه بالحزن والآسى فجعله يخر كخرير الماء آلماً وبؤسا.

لم يجد المظلوم ملجأ إلا الله ليشكو له همه وغمه وما وقع عليه من ظلم ضاع فيه حقه ومجهوده الطويل، وهو لا يملك إلا أن يرفع يده إلى السماء ليطلب العون والمدد منه عز وجل ليغيثه من بطش الظالم الذي نسى في لحظات حكمه أن الله موجود.

جمع الظالم زبانيته وراح يخطب فيهم مستعرضاً انجازاته وبطولاته الواهية التي صنعها بنفسه وهو يصول ويجول هنا وهناك والأفقين يصفقون ويمجدون ما قام به.

سكت المظلوم والتزم الصمت، فثار غضب الظالم وسأله: مالي أراك لا تصفق ولا تثني على صنيعي، أم أنك تنكر ما أنجزت وأوجزت.

قال المظلوم: أأصفق لك رياءً ونفاقاً، فما قمت به ليس إلا أوهام في خيالك لا وجود لها.

صرخ أحد الأفاقين في وجهه قائلا له: مالي أراك حاقداً ناقماً منكراً لصنيع كبيرنا وقائدنا، ألا تتقي الله وتقول قول الحق، أم أنك بغضك لقائدنا أنساك نفسك، فلولا حلمه وسعة صدره لبطش بك لكنه يترفع عنك، فهو واسع الصدر دمث الخلق يخشى الله، فلو كنت أنا مكانه لأنهيت عملك وقطعت رزقك وشردتك في شوارع المدينة حتى تتأدب وأنت تخاطب قائدنا ومرشدنا.

نظر المظلوم إلى عنان السماء ثم صعق المنافق على وجهه بعنف، فدار رأس المنافق حول عنقه من شدة الصفعة، فقال المظلوم للمنافق: أمثالك من خربو ودمرو كل شيء جميل خلقه الله، فلولا أمثالك لعمرت الدنيا وما خربت، ولتقدمت وما تأخرت، أين قول الحق الذي هجر قلبك وزاغ عن بصرك.

ألم تسمع لرسولنا الكريم وهو يقول ألا وقول الزور ألا وقول الزور ثم أشار إلى القائد الهمام وقال له: لم يغنيك هؤلاء عند الله ولم يشفعوا لك عنده، فحقي لن يضيع وإن دعتك سطوتك لظلمي فإن الله ليس بغافل عما فعلت، وسأنال منك بقوة من لا يغفل ولا ينام عاجلاً غير أجلاً.

خيم الصمت على وجوه الجميع وتغير وجه الظالم خوفاً من قوة المظلوم الذي لم يخشياه، انفض الجمع وانصرفوا بأمر قائدهم الغاضب وهم مطأطأي الرأس بعد أن قتل المظلوم خزيهم بقوة الحق الذي غاب وضاع بينهم، ظن الجميع أن الفتك ينتظر المظلوم الذي تجرأ على القائد المغوار فأخذوا يتهامسون فيما بينهم عن مصير المظلوم الذي سيطرد من عمله عما قريب.

ما هي إلا سويعات مرت حتى جاء المسعفون ينقلون الظالم إلى مسواه الأخير بعد أن فاجأه الموت فقضى عليه في لمح البصر.

المخادع

كنت أجلس في المسجد أتابع إحدى الدروس التي كان يلقيها الشيخ عمار في المسجد القريب من البيت، فثار الشيخ عمار وصب جام غضبه على الحكومة التي لم توفر حياة كريمة للمواطنين، فراح يسبها ويلعنها ويصفها بالكفر والإلحاد، ثم صعد بحديثه وسب الحاكم الغافل عن أفعال الحكومة، وأين هو من أمير المؤمنين عمر الذي ملأ الأرض عدلاً أثناء حكمه.

انتهى الشيخ من درسه الملل الطويل بعد أن أصاب رأسي بالصداع من كثرة صراخه بسبب وبدون سبب.

صلينا العشاء خلفه، وبعد أن أنتهى دخل في نقاش حاد مع أحد المصلين أظهر فيه عداؤه للحكومة والحكام.

استنكرت عليه غضبه الغير مبرر، فهذا الرجل لا يكف عن سب الحكومة بالفاظ بغيضة لم تعجبني لقناعتي أن النقد يجب أن يكون بناء خالي من السب والقذف للأخرين، اقتضاءً برسول الله الذي قال «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

عندما أنتهيت من الصلاة كان يجلس بجواري جارنا الشيخ رمضان وكان رجل قصير ذو لحية طويلة يتحلى بالخلق الكريم مثله مثل أبيه

وأمه، فسألته عن غضب الشيخ عمار الذي لا ينقطع، فهو يخلو من اللين، وإن كان الأحرى به أن يكون لين الحديث كباقي دعاة المسلمين.

قال لي الشيخ رمضان: لو دخلت السجن مثله وأهنت وضربت لأصبحت تسب الحكومة كما هو يسبها ويلعنها، فالحكومة في بلدنا كافرة لا تطبق شرع الله وتبيح الربا والخمر، والناس في بلدنا يعاملون أقل من معاملة الحيوانات في الدول الكافرة، ثم طلب مني الشيخ رمضان أن أصحبه لنصافح الشيخ عمار.

صافحني الرجل بقوة وكان قوي البنيان ذو لحية غير مهذبة تشبه لحى الرهبان والقساوسة، رحب بي الرجل، ثم سألني عن اسمي، فجاوبته فعرفني.

قال لي: أنت أخو الاستاذ محمد.

قلت نعم فزاد في ترحيبه.

قال له الشيخ رمضان: الشيخ أحمد يتعجب من حديثك الغليظ عن الحكومة.

فعاد الرجل لغضبه قائلاً: حكومتنا حكومة راقصات تبيع الخمر وتبيح الربا والقمار، فكيف نحترم حكومة لا ترعى الحدود ولا توفر للناس الدواء والعيشة الكريمة؟

اذهب إلى المستشفى لترى المرضى بالطوابير لا يجدون سريراً ينامون عليه ولا دواء يداوي علتهم، أين وظائف الشباب التي لا

يجدونها إلا بالواسطة والمحسوبية؟ وماذا عن الرشاوي التي تفشت في كل مكان؟ فأين الحكومة من كل هذا؟ وأين ولي الأمر؟

هززت رأسي في صمت وانصرفت بعد أن أنتهى من كلامه برفقة الشيخ رمضان إلى بيتنا القريب من المسجد، وقد سيطر الليل والظلام على شوارعنا التي خلت من المارة.

وصلت البيت بحمد الله، وكان أخي محمود عائداً للتو من الجامعة فصافحته بشوق لغيابه عن البيت أسابيع، وسألته عن سبب غيابه الطويل فبرره بإنشغاله بامتحانات نهاية العام.

أخي يدرس اللغة العربية وأدابها وهو واسع الثقافة، ولديه مكتبة كبيرة من الكتب الضخمة والمجلدات، فهو ولعاً بشراء الكتب في شتى المجالات، فلديه كتب في الفن والأدب والسياسة وعلوم الدين وعلوم اللغة، ولولعه بشراء الكتب كان كثير الشجار مع أبي، لأنه كان ينفق كل مصروفه على الكتب والمجلدات .

فرغ أخي من حديثه عن الجامعة والامتحانت وسألني أين كن؟

قلت له: في المسجد القريب من البيت كنت استمع لخطبة للشيخ عمار، ثم رحت أقص عليه ما قال وهجومه على الحكومة وقد انكرت عليه استخدامه لبعض الألفاظ الغير مهذبة.

ضحك أخي وقال: هذا الصنف من الناس يبحث عن مصلحته الشخصية، ناهيك عن جهلهم العميق بالدين وعلومه، فهؤلاء جميعاً

ينتمون لإحدى الطوائف التي تريد تحقيق أهدافها الضيقة، ورغبتها في الوصول لسدة الحكم للسيطرة على مقدرات البلاد، فالله وحده الأعلم بالنوايا.

لكني سأسدو لك نصيحة، إن أردت العلم فاعكف على القراءة ولا تجعل أحد يسطير على عقلك وفكرك، فإليك مكتبتي المتواضعة اعكف على تسجيل ما استطعت، وإن تعثرت في شيء فأنا موجود أنصحك وأوجهك.

قدم لي كتاب بعنوان «ففروا إلى الله» عكفت على قراءته حتى أنتهيت منه، وقد عقدت العزم على ألا أعود إلى هذا المسجد مرة أخرى خشية أن يسيطر الشيخ عمار على عقلي فيقودني خلفه دون تفكير.

عكفت على قراءة الكتب الواحد تلو الأخر، حتى شرعت في قراءة مجلد بعنوان " تربية الأولاد في الإسلام " فأخذ مني الوقت الطويل والذي قارب الشهر، وأنا أقرأ دون كلل أو ملل

ذات يوم خرجت من البيت قاصداً المسجد لأداء صلاة العشاء في جماعة، وبعد أن أنتهيت من الصلاة، قابلت الشيخ عمار الذي عاتبني على غيابي الطويل عن المسجد، فعللت غيابي كذباً بالمرض، فتقبل الرجل عذري، ثم طلبي مني أن أنضم لبعض الشباب في المسجد رغبة منه أن أكون واحداً منهم، فابتسمت ولم أعترض، فأجلسني مع مجموعة من الشباب المتحلقين في انتظاره.

فجلس الشيخ عمار كعادته يسب في الحكومة طالباُ من جمع الشباب عدم الخوف من بطش عيون الحكومة المنتشرين في كل مكان

سألته عن مقصده بعيون الحكومة.

قال الشيخ عمار: عيون الحكومة هم المخبرين الذين يجلسون في كل مكان لنقل أخبار الناس إلى رجال الشرطة، فهم يتقاضون الأموال عن عملهم هذا

فقلت له: ماذا ستستفيد الحكومة من تتبع أخبار الناس

رد الشيخ، ألم أقل لك حكومة كافرة.

استمريت على حالي أقرأ وأتباع بعض دروس الشيخ عمار بشكل متقطع وكنت أعقد المقارانات بين ما أقرأ وما يلقيه الشيخ عمار، وكنت أظن في باديء الأمر أن الشيخ عمار أحد خريجي العلوم الشرعية لكني أكتشفت أنه خريج دبلوم صنايع، فدخلت معه في بعض الحوارات ذات يوم أسأله عن مسألة فقهية، فقلت له: يا شيخ هل يجوز الوضوء بماء البحر؟

قال الشيخ عمار بعد أن أخذ فسحة من الوقت يشد فيها لحيتها من أعلى لإسفل قائلا: لا يجوز، فدخل أحد الحاضرين في الحوار ويدعى الشيخ حمدي، ودار حوار عنيف بينهم وصل لحد التشابك بالأيدي، فأكد الشيخ حمدي أن الوضوء بماء البحر جائز، وأنكر الشيخ عمار ذلك.

ولولا وجود الحاضرين لضرب بعضهم بعض، وما أشعل نار الحوار إتهام الشيخ عمار الشيخ حمدي بأنه جاسوس لأمن الدولة، وهو من ينقل الأخبار لهم، فهم الشيخ حمدي بضرب الشيخ عمار على وجهه فمسك يده ودفعه، حتى وقف الحاضرين كحاجز بينهم حتى لا تتفاقم الأمور وتصل لحد الضرب.

شعرت بالخجل فأنا السبب في اثارة الفتنة بين الرجلين، حتى جاء الشيخ رمضان وهدأ من نفسي قائلا: ما بك يا شيخ

قلت له: أشعر بالخجل

تبسم وقال: هما يسيران على هذا النهج منذ سنين، فالمنافسة بينهما شرسة وكله يصب في صالح الجماعة، فوجود علماء كهؤلاء يقوي الجماعة، فنحمد الله أن لدينا أكثر من قائد هنا، فهززت رأسي وصمتُ، وقد أنتبهت للأثنين وهما يتصافحان ويحتضنان.

فقال الشيخ رمضان: ألم أقل لك نحن إخوة ولا خلاف بيننا.

وبعد انتهاء المصالحة قال الشيح حمدي: سأرد على الشيخ عمار في الخطبة القادمة وبالدليل على صحة قولي.

قال الشيخ عمار: وأنا أنتظر لقاءك، فإما تقنعني وإما أقنعك.

مرت الأيام وكنت أنتظر هذا اللقاء بشغف كي أحصل على المعلومة الصحيحة والأكيدة، وجاء اليوم الموعود فألقي الشيخ حمدي درسه

مدعمه ببعض الأيات القرآنية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال الشيخ حمدي: كيف يحل الله التيمم ويحرم الوضوء بالماء الطهور المالح.

انتهى الشيخ حمدي درسه بهذه المقولة وبدى أن الجميع أقتنع برأييه إلا الشيخ عمار، الذي عقب على حديث الشيخ حمدي بقوله: لو أن لنا حكومة تطبق شرع الله ما كنا وصلنا لهذا الحد من الخلاف لكننا نعيش في بلد كافرة يحكمها الطواغيت، فقال الجميع صدقت، إلا أنا صمتُ.

مرت الأيام وتعددت اللقاءات مع الشيخ عمار الذي يبعض الحكومة ويكرهها ويسبها كلما سنحت له الفرصة، فبدى لي الرجل أنه مهلب قلوب الناس ضد الحكومة، فتسألت في نفسي لماذا تترك الحكومة هذا الرجل الذي يسبها ليل نهار حتى ترتاح من شره ولسانه، لكني لم أجد الجواب الكافي على سؤالي.

وفي ليلة صيفية هادئة جاءت ثلاث سيارات محملة بالركب من الجنود الذين يتوشحون سواداً، فنظرت من النافذة أتحسس ما يجري، فصرخ أحد الجنود قائلاً: أغلق النافذة وأدخل، فغلقتها دون أن أشعر، لكن ضجيج الجنود دفعني أن أنظر خلسة من خلف النافذة كاللص أتابع ما يجري.

أنتشر الجنود في شارعنا المظلم يرفعون اسلحتهم نحو البيوت، ثم توجه مجموعة منهم لبيت الشيخ رمضان، فركل أحدهم الباب بقدمه ففلق الباب نصفين.

هرول الجميع داخل البيت منتهكين حرمته، ولم تمضي إلا ثواني حتى صرخ الشيخ رمضان في الجنود: اخرجوا يا ولاد الكلب، فتبع صوت الشيخ رمضان صراخ أطفال البيت الصغار.

راحت زوجته تهدأ من روع أطفالها صارخة في أحد الجنود: اخرج يا حيوان حتى يهدأ الأطفال

رد الجندي: اصمتي يا عاهرة

فقالت زوجة الشيخ: العاهرة هي أمك

أثناء حوارهما طوق الجنود الشيخ رمضان وصعدوا به إلى عربة الشرطة الزرقاء وهو لا يكف عن سبهم وهم يدفعونه بقوة وعنف موجهين له بعض اللكمات في صدره وظهره

انطلق الركب بعد أن صعد الجميع سيارات الشرطة، وكانت زوجة الشيخ رمضان تعتلي النافذة وهي تردد: حسبنا الله ونعم الوكيل فيكم يا ظلمة.

أتاحت لي نافذتي القديمة النظر وأتاح لي هدوء الشارع السمع جيداً، ولم تمر إلا دقائق معدودة حتى فتحت نوافذ البيوت التي كانت

تنتظر رحيل الجنود، وخرج الرجال إلى الشارع في هدوء، فبدى لي أننا لم أكن الوحيد الذي تابع هذا المشهد.

فسألت نفسي: ماذا اقترف الشيخ رمضان كي يقتاده الجنود بهذه القسوة، فجسده النحيل لا يحتاج كل هؤلاء الجنود لإقتياده، وأين ذهبوا به؟

سألت أخي محمود الذي كان يتابع الموقف من النافذة الأخرى، فقال لي: يومين ويطلع، فربما أوشى عنه أحد الجواسيس

فقلت له: لكن الرجل يعيش في حاله

قال أخي: ربما أحد الجواسيس أراد أن يثبت لرجال الشرطة أنه يعمل عن كثب، فكتب فيه تقريراً يدينه، لكن لا تقلق فالرجل اعتاد ذلك.

لم تمر إلا أيام حتى عاد الشيخ رمضان إلى بيته، وسألته عن سبب أقتياد الشرطة له، فقال كلب من كلابهم أوشي بي أني أسب الحكومة وألهب الناس ضدهم، وقد نصحوني بألا أفعل ذلك مرة أخرى، ووعدتهم رغم عدم قناعتهم بأني لم أسب أحد، فتركوني، لكن بعض الإخوة مازالوا محتجزين

فسألته هل أعرف منهم أحد؟

قال نعم، الشيخ حمدي والشيخ عمار، فسألت الله السلامة للأثنين أن يعودا إلى بيتهما سالمين.

بعد أسبوع عاد الشيخان إلى المسجد وإن بدت علامات التعذيب على وجه الشيخ حمدي، الذي تورمت عيناه وأزرقت، وكان يتكأ قليلاً على إحدى قدميه، فعلم الجميع أنه نال قسطاً وفيراً من الضرب المبرح، إلا أن الشيخ عمار بدى بصحة جيدة، فقلت في نفسي: ربما ساعدته صحته القوية على تحمل اللكمات والضربات.

استمر الشيخ عمار في سب الحكومة جراء ما تفعله مع الإخوة من بطش وتعذيب دون ذنب اقترفوه، فاثار الشيخ عمار غضب الجميع بكلماته، فضرب الشيخ رمضان كف على كف متعجباً من القبض عليه من قبل رجال الشرطة دون أن يقترف ذنباً، فنوه الشيخ عمار عن وجود أحد الجواسيس داخل المسجد الذي ينقل أخبارهم لرجال الشرطة

فبث الشك في نفوس الجميع، وإن راحت معظمهم نحو الشيخ حمدي الذي أتهمه الشيخ عمار من قبل بهذه التهمة، إلا أن أثار الضرب التي بدت على جسده ذهبت برياح الشك بعيداً عنه.

توالت الأيام وتوالت هجمات الشرطة على بيوت المشايخ، وعلى رأسهم الشيخ عمار الذي كسر خاطري من كثرة القبض عليه، فأصبح من المعتاد سجنه وفك قيده عدة مرات، والرجل لا يكف عن سب الحكومة وقذفها، فهجمات الشرطة لم تثنيه عن أفعاله رغم كثرتها، فتعجبت من صلابة هذا الرجل العنيد، وتمنيت لو أني أصبح مثله شديداُ في صلابته وقوته.

نار أفراد الجماعة تشتعل يوم بعد يوم، فلم يمر يوم إلا ويحل أحدهم نزيل السجن، وأثار كرم الضيافة بدت جلية على وجهوهم وأجسادهم، فمكث أحدهم شهراً، ومكث الأخر شهرين، وهكذا استمرت الأيام تتداول عليهم، إلا أنه رغم التعذيب الذي تلقوه ظلوا ثابتين على مواقفهم إلا القليل منهم.

فذات يوم وأنا أمر بالسوق رأيت الشيخ خالد على غير عهده القديم بعد أن استبدل جلبابه الأبيض بالجينز الضيق والقميص المشجر بالألوان الفاقعة التي لا يسمح له عمره بإرتداءها، وكان الشيخ خالد يستمع إلى الموسيقى ويرقص عليها في الشارع أمام المارة

لم أصدق ما رأيت فرح أمسح عيناي مرات ومرة، وأنا أعيد النظر إليه ظناً أن الأمر أختلط عليَ.

ما جعلني أصدق ما رأت عيناي، أنه أشار إليَ وضحك فبادلته التحية بالإشارة فتأكد لي أنه هو، فدفعني الفضول لسؤال جارنا الشيخ رمضان عن حال الشيخ خالد الذي تبدل؟

قال لي: رجل ضعيف وخرع، فمن أول جلسة تعذيب إنهار وترك الجماعة وانخلع عنا وتركنا.

لماذ يقوم بهذه الأفعال المشينة؟

قام بهذه الأفعال التي لا ترضى الله ورسوله من أجل أن يثبت لهم أنه تاب وابتعد عن الجماعة، فهو الآن يستمع إلى الموسيقي ويرتدي الملابس الغير لائقة به وبسنه وبدينه للتأكيد على أنه انخلع عنا.

سألته: إن كنتم على حق، لماذا تطاردكم الحكومة من الحين للأخر بسبب وبدون سبب؟

أجابني الشيخ رمضان: لأننا على حق، فالحكومة لا تريد من يعارضها، إنما تريد منافقين يصفقون لها ويهتفون لها، أما نحن فدعاةُ خير إلى الله، لا نريد إلا تطبيق شرعه، وهذه الحكومة كافرة تريد العهر والربا وعدم الإحتكام إلى شرع الله.

سألته عن صلابة الشيخ عمار، فقال لي: هذا رجل مؤمن يقتدي بصحابة رسول الله، فهو صلب شديد لا يخشى في الله لومة لائم فإن خفت الله لم تخف من أي شيء، وإن لم تخاف الله أخافك الله من كل شيء، فأثنيت على قوة ايمان الرجل، حتى جاء الشيخ عمار.

فقال له الشيخ رمضان: شيخنا الصغير معجب بقوة صلابتك ضد حكومتنا الفاجرة

فأنطلق الرجل يغرد في عنان السماء عن صولاته وجولاته مع رجال المباحث، الذين يعذبونه ويضربونه، لكنه ظل يضحك من قلة حيلتهم، فهم كما قال: لا يملكون إلا ضرب أجسادنا بالسياط لكن قلوبنا شامخة

كشموخ الجبال، فنحن ثابتون على موقفنا ولن نترك دعوتنا قط حتى نذوق الموت شهداء في سبيل الله.

فقلت له أي شهادة؟ هل عزمتم محاربة أعدائنا اليهود.

رد الشيخ عمار إنها الشهادة في سبيل الحق، فنحن لا نريد إلا تطبيق شرع الله ليقام العدل بين الناس.

أخذتنا الدراسة في الجامعة بعيداً بعيداً عن شلة المسجد التي لم أراهم إلا في المناسبات وعلى فترات متقطعة، حتى جاء مؤتمر السكان في العام 1990، وفجأة أختفى الجميع دون سبب، فيبدو أن رجال الشرطة كشروا عن أنيابهم فجمعوا كل المنتمين لتلك الجماعات في ليلة وضحاها حتى خلت المساجد والشوارع منهم، واستمروا في سجنهم سنوات طوال، فأصاب الناس الراحة من تصرفات بعضهم المتشددة.

جمعتني الصدفة وحدها ذات يوم برجل أطلت النظر إليه دون سبب فبدى لي أني أعرفه، لكنه هرب بنظراته بعيدا، فدفعني الفضول أن أمسك به، فأتبعته في صمت حتى لحقت به وأستوقفته، فقلت له: أنا رأيتك من قبل، فقال لي: أهلا بشيخنا الصغير أنا الشيخ عمار.

الشيخ عمار: أهلا وسهلاً بك كيف حالك؟

قال الحمد لله على كل حال، صافحني وانصرف معللاً عجله بإنشغاله بأمر ما، احترمت خصوصية الرجل فودعته في صمت

والفضول يقتلني من ظهوره، فمن المفترض أن يكون حبيس السجن، وأين لحيته الطويلة التي أختفت؟ لكني لم أجد جواباً لما حدث.

بعد مرور عدة سنوات خرج الجميع، فرحت أبارك لجاري الشيخ رمضان عودته من سجنه الطويل، فبدى بصحة جيدة، ثم رحنا نتبادل الحديث عن أحداث الحياة التي تركها لسنوات، والتغير السريع الذي طرأ عليها.

وقد قادنا الحديث عن زملاءه في السجن، حتى تطرقت للحديث عن الشيخ عمار، فقال الشيخ رمضان: أنه لم يرى الشيخ عمار في المحبس قط.

قلت، إن لم يسجن الشيخ عمار لطول لسانه فمن يسجن.

قال: تلك هي الحقيقة، فبعد أن وضعنا جميعاً في المحبس لم نرى الشيخ عمار قط، فربما وضع في أحد السجون العتية البعيدة عنا.

قلت له: لقد رأيته منذ شهور في المدينة الكبيرة، وقد تغيرت ملامحه تماماً حتى أني لم أعرفه.

بهت الشيخ رمضان وقال: ربما خرج.

قلت: يبدو أنه يعيش في المدينة الكبيرة، لكن الوقت لم يهملني كي استفسر منه عن حاله وأحواله، لأنه كان في عجلة من أمره.

صمت الشيخ رمضان طويلاً، فصافحته وانصرفت بعد أن زاد فضولي لمعرفة السر وراء اختفاء هذا الرجل عن أصدقاءه، فرحت أفتش عنه وعن أخباره لكنني لم أصل لشيء.

كنت بصحبة أحد أصدقائي ذات يوم لزيارة أحد أقاربه وكان يعمل ضابطاً كبيراً بمديرية الأمن، وعندما وصلنا لمكتبه طلب صديقي من السكرتير الدخول لزيارة ابن عمه.

طلب منا سكرتيره الخاص إمهاله بعض الوقت لإنشغال سيدهُ في الوقت الحاضر ، ثم طلب منا الجلوس ونادى الساعي ليضايفنا ويسألنا ماذا نشرب؟.

طلب صديقي فنجان قهوة وأنا مثله، ثم قام الساعي بإحضار القهوة وكأس من الماء البارد، ونحن نتحدث مع سكرتيره الخاص الذي سأل صديقي عن صلة قرابته بالضابط.

أجابه صديقي: أنا ابن عمه، وهذا صديقي أحمد.

بالغ الرجل في ترحابه بنا بعد أن علم بصلة قرابة صديقي برئيسه.

لم يمر إلا من الوقت إلا القليل حتى خرج أحد الرجال الأصحاء من مكتب الضابط، وكان يتورى عنا بعد أن وضع رأسه أرضاً وانطلق في سرعة وخفة.

وكانت المفاجأة، الشيخ عمار.

سألت نفسي: ماذا يفعل الشيخ عمار هنا؟ وكيف يبغض رجال الشرطة ثم يجالسهم؟

قطع سكرتير الضابط ما يدور في خلجي، وطلب منا الدخول لرئيسه الذي ينتظرنا.

دخلنا، فقام الرجل مرحباً بنا، وسأله صديقي عن حاجة له، فلبى الضابط طلبه بعد أنا قام باجراء اتصال سريع بأحد الأشخاص، ثم طلب من صديقي أن يذهب إليه ليقضي له حاجاته.

خيم الصمت علىَ تماماً حتى ألتفت الضابط إليَ قائلا: الباشا سرحان بعيد عنا، أنا شايفك متاخد ومش معانا خالص.

قلت له: لا شيء إلا أن ما أثار دهشتي وجود هذا الرجل في مكتبك.

قال: وما الدهشة في ذلك، فهذا الرجل تحت أمرتي يعمل معنا وكنت أوجه له بعض التعليمات الخاصة بالعمل كي ينجزها.

قلت له: لكنه الشيخ عمار.

ضحك الضابط وقال: أعلم أنه الشيخ عمار.

قلت له: هل أنت متأكد من عمل هذا الرجل معك.

قال نعم، وما الغرابة في ذلك، فلدينا الكثير من أمثال الشيخ عمار يعمل معنا، فسألني عن اسمي ومسكني.

فجاوبته وأنا قلق من سؤاله.

قال، الشيخ عمار كان يلقي بعض الدروس الشرعية داخل المسجد الذي يقابل بيتك.

قلت له: نعم، وما أدراك بذلك.

ضحك الرجل وزادت ضحكاته دون مبرر، ثم قال: يا حبيبي نحن نسيطر كل شبر في هذه البلد، ولنا عيوننا في كل مكان لإحكام السيطرة على كل شيء فيها، فلو تركنا كل شيء يسير حسب الصدف كانت البلد ضاعت من زمان، ولم يأمن أي مواطن على نفسه وماله وأهله، فأطمئن يا صديقي نحن نحسن القيادة والسيطرة على كل مجريات الأمور في هذه البلد.

انتهى حديثي مع الضابط الذي أحسن استقبالنا والترحاب بنا، ثم خرجت وأنا أضرب كف على كف، كيف باع هذا الرجل قضيته وأصدقاؤه؟

بينما أحدث نفسي وأنا لا أصدق ما حدث وخذني صديقي محمد بطلف وقال لي: ما بك يا صديقي؟ لما كل هذه الدهشة التي تغطي وجهك.

قلت له: الشيخ عمار يعمل مرشداً؟! كيف؟!.

ضحك محمد ولم يكف عن الضحك، ثم قال: وما العجب في ذلك؟

قلت له: العجب أنه أكثر الناس سباً للحكومة وسخطاً عليها.

قال: يا أهبل الشيخ عمار كان عين الحكومة في المسجد، فهو من ساعد رجال الشرطة على الإمساك بكل جماعته التي كان ينتمي إليهم في العلن، لكنه كان يعمل سراً مع الشرطة، فينقل كل ما يدور بينهم أولاً بأول حتى أعدت الشرطة خطة كبيرة للنيل منهم جميعاً، ونجحت في ذلك بفضل الشيخ عمار.

قلت له: اتقي الله في الرجل، ولا تقول عليه قول الزور.

قال يا حبيبي الجميع يعلم ذلك إلا أنت.

صمتُ وأنا لا أصدق ما جرى وكأنني في حلم طويل.

شيبوب

كلما أصيب أحد بمكروه تراقص شيبوب وتمايل فرحاً بكل مصيبة حلت ووقعت، وكأنه شيطان تنكر في صور أدمي، تلك عادة من عادات شيبوب الذميمة، ذلك الرجل القصير المكير الذي لا ترى بياض في وجههِ سوى دائرتين صغيرتين تحيط بعيناه التي تنطق خبسا وبغضاً للجميع.

نسى شيبوب ذكر ربه الذي يعلم ما في الأنفس وما تخفيه الصدور، فختم الله على قلبه بعد أن هرب منه الصلاح الذي هجره وأبى أن يعود إليه رغم محاولاته الزائفة للتظاهر به كما أن الصلاح رفض مد طوق النجاة له لينؤ به من ظلمات الظلم إلى نور الهداية.

مكث شيبوب في عصيانه لأوامر الله يفتن بين الناس مقلباً القلوب على بعضها بالسوء من القول، ضارباً كل من حوله بالباطل زوراً وبهتاناً غير مبالي بما ينتظره من عقاب رب الأرباب.

لشيبوب باع طويل في نفاق أولي الأمر، فهو يرى أن ولاة الأمر هم أسباب الرزق والمدد، ولا رزق ولا مدد إلا من الله، فتشابه في نفاقه لأولي الأمر بصبي العوالم الذي يصفق لسيدته كلما رقصت أو اهتزت

معللاً لها كل ما تقوله أو تفعله، غير مبالي بشهادة الزور إذا اشتهدت به أسياده صدقاً أو كذباً، فهو يتلوى كالثعبان فلا تقدر على الإمساك به لكثرة كذبه ونفاقه.

علىَ شيبوب وتجبر وتكبر بعدما أمسك بكل الخيوط بيده، فراح يلهو ويلعب بمشاعر الناس وراحتهم، فيثير المشاكل حول شخص ما لينتقم منه تارة وليلهو ويلعب بمشاعره تارة أخرى، ظن شيبوب أنه إله في أرض الله، فهو وحده القادر على فعل أي شيء في أي وقت شاء فيه أن يعبث أو يلهو.

أكثر ما كان يحلم به شيبوب هو وطأ النساء رغم أن الله رزقه بزوجتين إلا أن فراغة عيناه دفعته للبحث عن الحرام، إلا أن الحيل لم تجديه لوقاحة وجهه وسلاطة لسانه الذي لا يكف به عن الخوض في أعراض الناس بالباطل، فهو بارعٌ في تأليف القصص الكاذبة وإفتعال المشاكل لكل من حوله غير مبالي بسخط ربه الذي لا يغفل ولا ينام عنه وعن كل ظالم نمنام.

ذات مرة راود إحدى زميلاته في العمل عن نفسها، فأبت ورفضت خشية عقاب الواحد الديان، لكن شيبوب قابل رفضها بكل ظلم وبهتان، فراح يدس لها الدسائس ويضربها في عرضها، وهو لا يبالي أن الله رزقه بالذرية الضعاف.

رفعت المسكينة شكواها إلى رب السماء كي يعصمها من هذا الفاجر، وما كان منه إلا أن قابل شكواها ونجواها بعدم المبالاة مظهراً عدم خوفه من البلاء مردداً قوله مرآياً: أنا لا أصاب بالبلاء لأن الله عصمني منه، ولما لا فأنا من الأتقياء.

فتحت الجريدة صباح اليوم لأجد صورة مرعبة تناولتها وكالات الأنباء عن أشلاء ممزقة داخل قطعة حديد هي ما تبقى من السيارة التي كان يقودها شيبوب، رحل شيبوب وظلت سيرته مضرب المثل في الخسة والإنحطاط.

ماتت صغيرة

تعالت صرخات االنساء والأطفال الصغار وهم يودعون فلذة كبدهم بعد صراع مرير قصير مع المرض اللعين الذي لا يرحم صغيراً ولا كبير، دك الحزن صدري عندما تواتر إليَ نبأ رحيلها، أنها الحقيقية التي نبغضها رغم ايماننا القاطع بها.

رحلت المسكينة في صمت، كما عاشت في صمت، فلم تمر عليها إلا أيام معدودات بعد أن أصابها المرض الذي لا شفاء له، وفي ليلة وضحاها أصبحت من عداد الأموات، بعد أن قطع المرض اللعين أوصالها قطعة قطعة بلا رأفت ولا رحمة،

رحلت المسكينة بعد أن عجز الطب والدواء على إنقاذها من مرضها، فلم تفلح جلسات العلاج الكميائي من قتل المرض، الذي انتصر عليها وعلى أطبائها بإرادة من الحي الذي لا يموت.

أصابني الحزني على رحيلها، وتذكرت سؤالها عني في كل مرة لم ألقاها فيها، فقد كانت ودودة تحب الناس ولا تنقطع عن السؤال عنهم في السراء والضراء، تذكرت أيضاً مواقفها مع زوجها التي كانت تمد ليه يد العون والمساعدة فلم تتخلى عنه رغم ضيق حاله وشدة بؤسه، كما

تذكرت مساعدتها لأمها وإخوتها قدر ما استطاعت، فلم تكل أو تمل في خدمتها لذوي أرحامها رغم بساطة حالها.

جلست بعد رحيلها فترة من الزمن اترقب حال المقربين منها، فلم أجد إلا لهو الحياة قد سيطر عليهم، فنسو أو تناسو موتها الذي فجع القلوب، ففي غفلة من الزمن نسوا المسكينة التي كانت تمد يد العون لهم، ولقد استنكرت ولمت عليهم ما فعلوا، إلا أنني ذهبت ألوم لحزني على رحيلها، فرغم قناعتي بالموت إلا أني أحزن عندما يفارقني الأحباء وما ألبث أن أنسيى كما ينسى غيري.

إلا أن فراق الشابة الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها الأربعين أتى سريعاً تاركةً خلفها أطفال صغار يجهلون الحياة، ماتت فسقطت حبة التوت من غصنها بعد أن حطمها المرض وقطع أوصالها وقضى عليها.

منذ عدة شهور سألت عنها زوجتي وبحثت عنها سائلاً عنها لأطمئن عن حالها بعد أن أصابها المرض اللعين الذي لا يرحم، ورغم بحثي عنها لم أتمكن من لقاءها، فقد حالت العادات والتقاليد بيننا لتشكل حاجزا منيعاً فلم نلتقي.

لم تكن رغبتي في رؤيتها شوقاً إليها فلم يطرق حبها باب قلبي، لكنها عشرة الأيام والسنين كانت هي الدافع لرغبتي. وبعد أيام شاء القدر أن ألتقيها.

كنا على موعد يجتمع فيه الأهل والأقارب وكان المكان مزدحماً يعج بالحضور بعضهم يبغضني ويكره رؤيتي، والقليل يرحب بزيارتي حقداً وليس جراء سوء عملي معهم، إلا أنني أتقبل فكرة الحقد وأعيها جيداً، فلا أهتم بأمثال هؤلاء ليس تكبراً أو تعالي، ولكن لقناعتي التامة أن الحقد لا يمحى من القلوب السوداء

صافحت الجميع وصافحوني، إلا هي فكانت كثيرة الترحاب أصافحها ولم تلمس يدي يدها، ثقلت قدمي فلم تستطع الحركة للتخطي الحاضرين لمصافحتها رغم محاولاتي المتكررة التي باءت أغلبهم بالفشل، ورغم أن الوقت طال وتسرب الخوف إلى نفسي خشية أن تظن أني أبغضها بسبب مرضها، فلربما حدثتها نفسها أني لا أود رؤيتها، والدليل سيكون جلياً واضحاً أمامها أني جئت ولم أسأل عنها في مرضها.

أخيرا تبسم القدر لي بعد وقت مر على وجودنا، وها هي تأتي لتصافحني بابتسامة رقيقة أنهكها المرض، لكنها صافحتني بقوة ربما لأني لم أراها منذ وقت طويل، لكن الشيء الغريب الذي حدث أنها صافحتني بطريقة مختلفة عن ذي قبل، فصافحتني بعيناها قبل أن تلامس يدها يدي، وكأنها تعاتبني لغيابي الطويل عنها، فردت عيناي عليها عذري السفر البعيد هو السبب ولست أنا.

وبينما أصافحها قالت لي عيناها ما عجز عنه لسانها: إملأ عيناك مني لربما تكون نظراتك هي الأخيرة التي سأراك فيها، لأن القدر قد لم يمهلنا الوقت كي نلتقي مرة أخرى.

هذا ما نطقت به عيناها ولم يبوح به لسانها، خيم الصمت على لقاءنا وكاننا اخرسان أو طفلان في المهد لم ينطقا بعد.

مرت الأيام وزادت حالتها سوءً، ضاق صدري حزنا على ألمها وخوفاً عليها تارة وخشية على مصيرها المحتوم تارة، وقلقاً على فلذات كبدها الصغار تارة أخرى، فأطفالها يحطمون من لا قلب له.

سقطت بعد أن أدت صلاتها وغفت حتى تعمقت في النوم، فظن الجميع أن الألم ذهب وولى، ولكنه لم يكن الألم الذي ذهب، بل هي من ذهبت للقاء ربها.

سقطت ورقة الشجر التي كانت تظلل على بيتها وبيت من حولها فكانت هي بصيص النور الذي كنا نهتدى به عندما ندخل البيت المظلم الكئيب، ماتت بعد أن قطعت أوصالنا وضيقت صدرنا، فسألت الله أن يرحمها برحمته.

مات هشام

ملأ هاتفي الصغير مضجعي الهادىء ضجيجا محطماً لحظات سكونه وراحته التي خيمت على المكان التي كانت فيه الساعة تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً، ففقت مفزوعاً على صراخه فأوقفت ضجيجه بإغلاقه دون أن أعرف من يهاتفني، إلا أن ضجيجه عاود الكرة مرتين، فهجرني النوم حزيناً دون رجعة بعد أن أزعجه صوت الهاتف المزعج.

في هذه اللحظات وعيت من المتصل، فكان من يهاتفني عمرو ابن اختي، توجست خيفةً في نفسي عندما رأيت اسمه خوفاً من المجهول الذي لا أعرفه، فراحت تطاردني أفكاري المرتبكة، وقد ألقت عليَ سيلاً من الأسئلة: من مات يا ترى؟! من أصيب يا ترى؟! ما المصيبة التي حلت؟

مع تكرار الأسئلة قررت قطع الشك باليقين فأجبت ابن أختي بصوت مرتعد صحبه رجفة في أعضائي: الووو، أيوه يا عمرو.

أنت سمعت يا خال؟

سمعت إيه؟!

عرفت اللي حصل؟

لا والله، فالنوم سيطر علي مبكرا في هذه الليلة

اسمع يا خال: هشام مات

هشام مين؟

هشام السكي

هشام مين؟!

هشام السكي يا خال مات

مات ازاي وامتى!؟ هشام مات، هشام مات

ايوه مات يا خال، مات من شوية، كان في المصيف ومات.

اغلقت هاتفي النقال في وجه عمرو دون أن أدرك ما حدث، فمشاعري ذهبت إلي حيث لا أدري، وبينما أناجي مشاعري سيطرت على ذهني أحاديث هشام وضحكاته ونظراته وحركاته، وكأن روحه عادت تداعبني من جديد، لتحدثني وأنا أنصت إليها فرحاً دون أن أدرك أي شيء.

مرت لحظات وعقلي الباطن يغزي مشاعري بما أنكر وجوده لكن اليقين عاد إلى عقلي بعدما بث إليه أصوات المساجد الطمأنينة باسم

الله الذي صدحت به أصوات المؤذنيين، حينها وعيت أن المصيبة حلت ووقعت، فلا مفر من حقيقة يذقها كل مخلوق مصداقاً لقوله عز وجل «كل نفس ذائقة الموت».

مازلت لا أصدق ما حدث فرحت أفتش عن لا شيء، لعلي أجد من يقول لي: أن خبر وفاته غير صحيح، لكني لم أتلقى إلا كلمات التأكيد، فعادوت الاتصال بعمرو أسأله عن صحة خبره، ولم أتلقى منه إلا عبارات التأكيد.

مر وقت طويل نقل المقربين منه جسده الضخم إلى بيته الكبير ومن ثم إلى مرقده الأخير.

عجزت أن أشيعه بعد أن سقطت في بئر الأحزان وقد شلت أركاني عن الحركة وعن النطق، فجلست شارداً أهجر الزاد، فلم أشعر يوما بقرب أجله، لماذا؟ لا أدرى، هل لقربي منه؟ أم لبشاشة وجه، أم لصلته بأرحامه؟ لا أعلم.

قاومت نفسي الضعيفة وذهبت أشد من أذر إخوته، فجلست أواسيهم وأنا أنتظره كي يأتي إليَ ليكذبهم، لكن الوقت زاد وطال حتى حطم سفينة الأمل التي رست في عرض البحر منتظرةً اشارة الرسو في شاطئه، لكن أمواج الانتظار العاتية حطمت سيفنة الأمل ونثرتها لإشلاء في بحر الأحزان.

لملمت نفسي وأنطلقت بخيبة أمل، فأنا ما زلت لا أصدق ما حدث، لكنها الحقيقة التي لا مفر منها، إنه الموت الذي فرق بين الأحباب، فغصت في آلم الفراق وأنا لا أملك إلا ذكراه العطرة داعيا له الرحمن الرحيم أن يمن عليه بالرحمة والمغفرة.

أبو لمعة

بدأ أبو لمعة حياته كأي شاب يبحث عن أثبات ذاته، فأراد له دورا في محيط اسرته التي يتوسط فيها إخوته، ونظرا للفارق الكبير في العلم والثقافة بينه وبينهم، إلا أن ذلك لم يثنى أبو لمعة عن تحقيق هدفه الذي سعى إليه دون يأس.

بعد بحثٍ طويل وجد أبو لمعة ضالته في إفتعال المواقف والأحداث الواهية التي لا وجود لها، ليثير انتباه من حوله ويكون هو محور حديثهم الذي لا ينضب بعد أن نصب نفسه بطلاً لكل الأحداث التي وقعت، فهو يرى نفسه ذو شخصية قوية، ولدَ بين إخواته لكي يكون كبيرهم وقائدهم ومعلمهم ومرشدهم.

شخصية أبو لمعة تشبه الكثير من الشخصيات الكرتونية في هذا المجتمع الذي أضمحلت فيه الثقافة وندر فيه العلم، بعد أن أنتشر الجهل وعلىَ الفاسدين المناصب الرفيعة.

أبو لمعة قصير مكير تخطى الثلاثين بخطوة، فهو يعشق اللف والدوران وكثرة الكلام وسلط اللسان في بعض الأحيان، ناهيك عن العديد من المغامرات النسائية التي يخفيها كنفاقه الفريد.

دوماً يتحدث مظهراً حسن نيته وهو عنها بعيد، فهو عميق في أسراره التي لا يصل إليها أحد، فظن نفسه أنه أذكى ممن يحيط به، إلا أن الأيام كشفت في نهايتها عن سطحيته، وبعيداً عن هذه الآفات التي طوقت هذا الرجل، إلا أن الحق يقال أنه من منبت طيب لا يأكل حراماً ولا يشهد زوراً ولا بهتاناً.

لأبو لمعة مواقف ساخرة نظرا لباعه الطويل في الكذب والتضليل، بدأها منذ أن كان شاباً يافعاً، فأقام أبو لمعة علاقات متشعبة أراد بها أثبات وجوده ككبير بين كل من هو كبير.

كان أبو لمعة في هذا الوقت ممارساً للرياضة كغيره لكنه كان لاعب محدود المهارة، فجلست معه ذات يوم ليحدثني عن مهاراته الفائقة في كرة القدم وعن الجماهير الغفيرة التي كانت تتابعه من بين اللاعبين لتفرده من بينهم بمهارته الفارقة.

قال أبو لمعة: كنت ألعب إحدى المباريات في ملعب المنافس وكانت في مدينة تدنو من مدينتنا قليلاً، وكان الملعب مكتظاً بالجماهير الغفيرة التي ظلت تهتف ضدي طوال المبارة كي أتأثر بهتافها، لكن هيهات هيهات فأنا لاعب ثقيل لا أتأثر بما يقولون.

فكانت لي صولات وجولات مع اللاعبين الذين يخشون اللعب أمامي، فكنت لا أسمح بمرور الكرة من منطقتي فكنت حائط صد منيع أمام المهاجمين، وفي هذه المباراة قطعتُ إحدى الكرات

وانطلقت بها من بين الاعبين والجماهير تصرخ، وأنا أمر وسطهم في ذهول الجميع حتى أوقفت الكرة بمهارة ووضعتها في شباك حارس المرمى في ذهول الجماهير الذين صاحوا في فريقهم: ألم نقل لكم احذروا هذا اللاعب المكير.

أطلق بعدها حكم المبارة صافرة النهاية ليظفر فريقي بالفوز بعد أن منى الفريق المنافس بالهزيمة بهدفي القاتل في شباكه، ومن هنا ذاع سيطي بين المدن والقرى، فكان يمسك بي المدافعين ملتصقين إلا أنني وبمهارتي الفريدة كنت أفلت من متابعتهم وأنطلق لأحرز الأهداف في شباكهم بكل سهولة ويسر.

مر الوقت الطويل وأبو لامعة يتحدث عن مهارته وأنا أنصت غير مبالي بما يقول، حتى قطع أحمد صديقه القديم حواره الطويل وجلس مثلي ينصت له، وأبو لمعة مستمراً في الحديث.

إلا أن صديقه لم يعجبه الحديث فقال له: هل أعرف هذا اللاعب الذي تتحدث عنه يا أبو لمعة.

قال أبو لمعة: أنا أتحدث عن نفسي.

ضحك أحمد وقال له: أنت فعلت كل هذا؟ أين ومتى؟ أفي أضغاس أحلامك، فمنذ أن عرفتك وأنت لاعب محدود المهارة تجلس على

دكة البدلاء أكثر مما تلعب، الله يخرب بيتك يا أبو لمعة كف عن كذبك أمام من لا يعرفك.

بهت أبو لمعمة وغير مسار حديثه متحدثاً عن عزوته وعائلته الكبيرة المترامية الأطراف والتي تشعبت فروعها حتى بسطت نفوذها على كل بقعة على أرض المحروسة، فما جلس معك أبو لمعمة إلا وحدثك عن عائلته الكبيرة، وأنه قاد بحكمته وفطنته المعارك ضد العائلات الأخرى.

فهرس

إهداء 5

سارق الزكاة 9

بر الوالدين 16

عاد أبو يحيى 25

اللص الثري 31

صباح حزين 40

الخائنة المتكبرة 47

المظلوم 63

المخادع 69

شيبوب 87

ماتت صغيرة 90

مات هشام 94

أبو لمعة 98